الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد خيضر- بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية



الأبعاد التداولية في مقامات الحريري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآداب و اللغة العربية

تخصص اللسانيات واللغة العربية

إعداد الطالب :

النذير ضبعي

إشراف الدكتورة:

فوزية دندوقة

لجنة المناقشة

عمار شلواي	أستاذ	رئيسا	جامعة بسكرة
فوزية دندوقة	أستاذ محاضر- أ-	مشرفا ومقررا	جامعة بسكرة
الأمين ملاوي	أستاذ محاضر- أ-	عضوا مناقشا	جامعة بسكرة
فطومة لحمادي	أستاذ محاضر- أ-	عضوا مناقشا	جامعة تبسة

السنة الجامعية: 1436/1435هـ

2015/ 2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمة

تحمل اللغة في مظانها أبعادا سياقية مختلفة: سياسية، واجتماعية، وتاريخية، ونفسية... لذلك فإن قوانينها الخاصة غير كافية لفهم الكلام، فاستعمالها وفهمها يستدعي معارف غير لسانية.

لذلك جاءت التداولية لتجمع بين التركيب والدلالة والسياق، بعدما شهدت الدراسات السابقة قصورا واضحا في إجراءاتها ونتائجها، لاهتمامها بالمستويين التركيبي والدلالي أو بأحدهما.

فالتداولية تعنى بدراسة اللغة في السياق من خلال الظروف المحيطة بها من مكان وزمان التخاطب، لكي تتضح مقاصد المتكلم والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب، وتهتم أيضا بنوعية العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين. وفي ضوء هذا التطور تسعى المقاربة التداولية إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة مثل: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ولأجل ماذا يتكلم؟ ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يُرفع الإبهام عن الجملة؟ كيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر؟ وهل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟

وقد اهتمت التداولية في بدايتها بالخطاب العادي أو التواصلي، غير أنها سرعان ما وسّعت مجال اهتمامها ليشمل تحليل الخطاب الأدبي، وعملت على تطوير مفاهيمها النظرية وأدواتها التحليلية لتوائم هذا الاستعمال المخصوص للغة سواء أكانت شعرا أم نثرا.

ومن هنا جاءت فكرة موضوع هذا البحث الموسوم ب" الأبعاد التداولية في مقامات الحريري"، الذي يسعى إلى تطبيق ما توصلت إليه التداولية من دراسات على أحد أبرز الكنوز التراثية المتمثل في مقامات الحريري، لكشف ما تختزنه من أبعاد تداولية، ومدى قدرة هذا المنهج على استكناه مكنونات النص التراثي العربي، ومعرفة قصد المتكلم، والجانب التأثيري في هذا الصنف من الملفوظات، وسعيا مني أيضا لتوضيح أبرز الآليات التداولية التي تستخدم في مقاربة النصوص.

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع:

- اهتمامي بالدراسات اللغوية عامة والتداولية خاصة.
- ولعي بالموروث العربي القديم خاصة المقامات لما تحتويه من ثراء لغوي، وخطاب غير مباشر مرتبط بالسياقات المختلفة.

ونظرا لما تتمتع به لغة المقامات من لغة إيحائية، وأقوال حجاجية، وأبعاد سياقية، تثمر لنا حقولا خصبة لهذه المقاربة، ولآلياتها الإجرائية؛ كالإشاريات، والأفعال الكلامية بنوعيها المباشرة وغير المباشرة، والحجاج، جاء طرح الإشكال الرئيس كالآتي:

-ما أبرز العناصر المتوفرة في خطاب المقامات التي يمكن مقاربتها تداوليا؟

وينقسم هذا الإشكال إلى إشكالات فرعية هي:

1- كيف تستطيع المقاربة التداولية فك شفرات المبهمات من القول في الخطاب الأدبي؟

2- كيف تساهم المعرفة المشتركة بين طرفي العملية التواصلية في تحديد مراجع الإشاريات؟

3- هل يمكن للخطاب التخييلي أن يشكل أفعالا إنجازية لها القدرة على التغيير؟

4- ما الجوانب التأثيرية والحجاجية التي لجأ إليها المتكلم بهدف إقناع المتلقي؟

ولهذا يأتي البحث مقسما إلى: مقدمة، ومدخل نظري، وثلاثة فصول، وخاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها.

تناولت في المدخل مفهوم التداولية لغة واصطلاحا، ثم الإرهاصات الفلسفية لها، لأختمه بعلاقة التداولية بالخطاب التخييلي.

أما الفصل الأول فتطرقت فيه إلى دراسة الإشاريات في المدونة، بدءا بمفهومها، وعلاقتها بالإحالة، ثم عرضت لدراسة أنواعها في مقامات الحريري؛ كالإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية والاجتماعية، وأنهيت الفصل بمبحث عنوانه "المعرفة المشتركة والإشاريات"، حاولت أن أبيّن فيه دور المعرفة المشتركة بين طرفي العملية التواصلية في تحديد مراجع الإشاريات.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ: "أفعال الكلامية في مقامات الحريري" تناولت فيه الأفعال الكلامية عند كل من "أوستن" و "سيرل"، ثم درست الأفعال المباشرة في خطاب المقامات، ثم الأفعال غير المباشرة، لأنهي هذا الفصل بتبيان دور السياق في تحديد القوة الإنجازية لها.

وخصصت الفصل الثالث للحجاج في المدونة، حيث قمت بتقسيمه إلى مجموعة من المباحث هي: الحجاج في الدرس التداولي، والحجاج عند العرب القدامى، والسّلم الحجاجي، والروابط والعوامل الحجاجية، والمبادئ الحجاجية ، والآليات البلاغية كالاستعارة الحجاجية، والتشبيه، والسجع.

وأنهيت البحث بخاتمة تضمنت ما توصل إليه من نتائج.

وقد اعتمدت مجموعة من المصادر والمراجع أذكر منها: مقامات الحريري، والبيان والتبيين للجاحظ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ومفتاح العلوم للسكاكي، واستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية لعبد الهادي بن ظافر الشهري، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر لمحمود أحمد نحلة، والتداولية عند العلماء العرب لمسعود صحراوي، وكتب مترجمة منها: أفعال الكلام ل"أوستن"، والتداولية اليوم علم جديد في التواصل لــ"آن روبول وجاك موشلر".

وختاما، أحمد الله المعين على ما وفّقني إليه، وأوجه الشكر الجزيل للأستاذة المشرفة الدكتورة "فوزية دندوقة" التي كان لها الفضل الكبير في إنجاز هذا البحث، فلها كل الامتنان والتقدير.

مدخل نظري: التداولية: (المفهوم والنشأة)

أولا- تعريف التداولية

1- التداولية لغة

2- التداولية اصطلاحا

ثانيا- الارهاصات الفلسفية للتداولية

1-الوضعانية المنطقية

2- الظاهراتية اللغوية

3- فلسفة اللغة العادية

ثالثا- التداولية و الخطاب التخييلي

أولا- تعريف التداولية:

عرفت الدراسات اللغوية في القرن العشرين اتجاهين رئيسين، اتجاه صوري واتجاه وظيفي؛ أما الأول فإنه يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، فهو يهتم بالمنجز اللغوي في صورته الآنية بعيدا عن السياق الذي أنتج فيه، ويعنى الثاني بدراسة اللغة في السياق، وتعد الدراسات التداولية امتدادا لجهود هذا الاتجاه الوظيفي ، وقد استطاعت أن تقدم تفسيرا ناجحا لعملية التخاطب بعد إخفاق النموذج البنيوي، وبذلك فتحت مجالا جديدا واسعا في آفاق اللسانيات، فقد بيّنت أنّ عملية التخاطب لا تقتصر على الجانب اللغوي وحده، بل تتناول أيضا عناصر خارجية كالمتكلم، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية، لمعرفة قصد المتكلم والمعنى المراد؛ لأن المعنى "ليس فيما يقول النحاة، أو ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفية المجرّدة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها -استماعا أو قراءة- وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق" [1]، وهو ما أعطى لهذا الحقل المعرفي بعدا ابستومولوجيا جديدا تتداخل فيه علوم مختلفة.

وقبل التطرق إلى الدراسة التداولية لابد لنا من وقفة موجزة، نسعى من ورائها إلى التعريف بالتداولية بشقيها اللغوي والاصطلاحي.

ولعل تقديم تعريف دقيق لها يلمّ بجميع جوانبها أمر صعب، ذلك أنها تستقي معارفها من مصادر عدة، كما أنها تتداخل مع كثير من العلوم المعرفية، مما جعل كل

[1]- بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص 20.

باحث ينطلق في تعريفها من ميدان تخصصه، لذلك سنكتفي بإيراد أهم ما جاء في تعريفها فقط.

1- التداولية لغة:

يرجع مصطلح "التداولية (pragmatique) في الدراسات الغربية إلى الكلمة اللاتينية (pragmaticus) المبنية على الجذر(pragma)، ويعني العمل أو الفعل (action)"[1].

أما في أصله العربي فيعود إلى الجذر اللغوي (دول)، فقد ورد في معجم "أساس البلاغة" للزمخشري: "دَولَ: دَالت له الدّولة، ودَالت الأيام بكذا، وأَدالَ الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه ... وأُديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأُديل المشركون على المسلمين يوم أُحد ... والله يٌداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم ... وتَداولوا الشيء بينهم، والماشي يُداول بين قدميه، يراوح بينهما".[2]

وجاء في "لسان العرب" لابن منظور: "تداولنا الأمر أَخذناه بالدٌّول. وقالوا دَوالَيكَ أَي مُداوَلَةً على الأمر...ودالَت الأيام أي دَارَت، والله يُداولها بين الناس. وتَداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة... وتَداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تَعاوَرنَاه فعمل هذا مرة وهذا مرة."[3]

فمدار اللفظ "دول" هو الانتقال والتحوّل، مع وجود أكثر من طرف في هذه العملية، و"تلك حال اللغة متحولة من حال لدى المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع، ومنتقلة بين

[1]- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009، ص18.

[2]- الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1966، ج1، ص 288.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، 1994، مادة (دول)، المجلد11، ص 252-253.

الناس، يتداولونها بينهم، ولذلك كان مصطلح "تداولية" أكثر ثبوتا بهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى الذرائعية، النفعية، السياقية"[1].

وفي معرض هذا الحديث يقول الباحث المغربي طه عبد الرحمن: "تداول الناس كذا بينهم، يفيد معنى تناقله الناس وأداروه فيما بينهم، ومن المعروف أيضا أن مفهوم النقل ومفهوم الدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة، كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: نقل الكلام عن قائله بمعنى رواه عنه، كما يقال: نقل الشيء عن موضعه أي حركه منه، ويقال: دار على الألسن بمعنى جرى عليها... فالنقل والدوران يدلان في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل، وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين ... فيكون التداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى التداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل"[2].

ولعل هذه المعاني المعجمية هي التي جعلته يضع مصطلح التداوليات مقابلا للفظ الأجنبي (pragmatique)، حيث يقول: "وقد وقع اختيارنا منذ 1970على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا)؛ لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا. ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين

---

[1]– خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 148.

[2]– طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 244.

أخذوا يدرجونه في أبحاثهم"[1]، فقد أراد الباحث أن تكون الدلالة الاصطلاحية موصولة العرى بالدلالة اللغوية.

حاصل النظر فيما مضى أن المعاني التي يسبح فيها الجذر (دول) لا تخرج عن إطار التحول الذي يعد قوام التفاعل والتواصل.

2- التداولية اصطلاحا:

تهتم التداولية بدراسة اللغة أثناء الاستعمال، حيث تراعي كل ما يحيط بها كالمتكلم، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، والحاضرين أثناء الخطاب، وعلاقة المتكلم بالمخاطب، والمستوى الثقافي لهما... كي تتضح مقاصد المتكلم، والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب، لذلك عدّها "رودولف كارناب" "R. Carnap" قاعدة اللسانيات، فهي قادرة على حل الكثير من القضايا اللغوية التي عجزت عن حلها المناهج السابقة[2].

وتنهل التداولية من منابع عدة، فهي ملتقى لمصادر مختلفة يصعب حصرها، لكل مفهوم من مفاهيمها حقل معرفي انبثق منه، فالأفعال الكلامية ولدت من رحم الفلسفة التحليلية، ونظرية المحادثة انبثقت من فلسفة "بول غرايس" "P. Grice"، وأما نظرية الملاءمة فقد خرجت من علم النفس المعرفي وهكذا... [3]، لذلك كانت ملتقى للكثير من النظريات المعرفية والفلسفية، مما أدى إلى تعدد تعريفاتها حسب اهتمامات الباحث.

---

[1]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص 28.

[2]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ط1، 2004، ص23.

[3]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطبعة بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 17.

ولعل أول تعريف لها يعود إلى الفيلسوف "تشارلز موريس" " CH.Moris" عام 1938، فقد اعتبرها جزءا من السيميائية، حيث ميّز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة وهي: علم التركيب الذي يُعنى بدراسة العلاقات بين الكلمات، وعلم الدلالة الذي يهتم بالمعنى الحقيقي للملفوظات، وأخيرا التداولية التي تدرس – حسب رأيه– العلاقات بين العلامات ومستخدميها[1].

ولم تصبح التداولية علما يعتد به إلا في السبعينيات من القرن العشرين، بعد أن قام بتطويرها فلاسفة أكسفورد، حيث درسو ا اللغة وربطوها بكل ما يحيط بها أثناء التلفظ، فصارت التداولية تهتم بوصف العلاقة القائمة بين المرسل والمرسل إليه أثناء التواصل، وتُعنى بالحدث اللغوي، لفهم قصد المتكلم [2]، وبذلك جمعت بين الأقطاب التواصلية الثلاثة وهي المتكلم، والمتلقي، والخطاب.

وقد اختلف الباحثون في تعريفها، فهناك من ركّز على الخطاب، وعدّها مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية، التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية[3].

وهناك من ربطها بالمرسل، فعرفها بأنها "كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء

---

[1]– ينظر، آن روبول – جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس – محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 ،2003، ص 29.

[2]– ينظر، نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراءات، ص23–24.

[3]– ينظر، فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007، ص 18.

عناصر السياق، بما يكفل ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه"[1]، وقد ربطها محمود أحمد نحلة بالسامع فعدّها "فرعا من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم (speaker intentions)، أو هو دراسة معنى المتكلم (speaker meaning)، فقول القائل: (أنا عطشان) مثلا قد يعني: (أحظر لي كوبا من الماء)، وليس من اللازم أن يكون إخبارا بأنه عطشان"[2].

من هذه الرؤى المتعددة تغدو التداولية في مفهومها العام دراسة للغة أثناء التواصل أو الاستعمال، فهي تجمع بين اللغة والسياق أثناء الدراسة لفهم المعنى؛ لأن هذا الأخير ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، بل لابد من تضافر أقطاب العملية التواصلية والسياق للوصول إلى المعنى الكامن في الكلام.

ثانيا- الإرهاصات الفلسفية للتداولية:

إذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى للتداولية يمكن أن نلمسها في الفلسفة التحليلية، وهي اتجاه فلسفي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارساتها، فقد حددت هذه الفلسفة لنفسها مهمة واضحة منذ تأسيسها على أساس علمي موضوعه اللغة، فثارت على الفلسفة الكلاسيكية (الميتافيزيقية والطبيعية)، لتجعل مهام الفلسفة البحث في اللغة وتوضيحها[3].

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ط 1، 2004 ، ص22.

[2]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، دط، 2002، ص12-13.

[3]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص20.

ويعدّ "فريجه" " G. Frege" مؤسس هذا الاتجاه الفلسفي، وقد تأثر به عدد من الفلاسفة منهم: "هوسرل" " E.Husserl"، "وكارناب"، و"فيتغانشتاين" " L. Wittgenstein"، و"أوستن" "J. Austin" و"سيرل" "J.Searle"، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشترك مفادها: "أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتّجاهاتها"[1].

ويدعو الاتجاه التحليلي إلى[2]:

1- الثورة على أسلوب البحث الفلسفي القديم، خاصة الجانب الميتافيزيقي منه.

2- الاهتمام بالتحليل اللغوي.

3-تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، خاصة مبحث الدلالة والظواهر اللغوية المتفرعة عنه.

وتنقسم الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة أقسام رئيسة[3]:

- الوضعانية المنطقية بزعامة رودولف كارناب.
- الظاهراتية اللغوية بزعامة إيدموند هوسرل.
- فلسفة اللغة العادية بزعامة فيتغنشتاين.

أ- الوضعانية المنطقية: يتزعمها "رودولف كارناب"، الذي تتلمذ على يد "فريجه"، ويرى أصحاب هذا الاتجاه في طوره الأول أن اللغة الجديرة بالتحليل هي اللغة المثالية، لكن

---

[1]- المرجع السابق، ص21.

[2] - ينظر، أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، منشورات عكاظ، الرباط، 1989، ص26.

[3] - ينظر، كادة ليلى، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا، رسالة دكتوراه (مخطوط)، ص22.

سرعان ما غير "كارناب" مواقفه ليهتم باللغات اليومية، حيث قام بتأسيس فلسفة ذات جذور تداولية، بعدما أحسّ أن اللغة ليست مجرد قواعد تُبنى بها الجمل، بل هي تعبير عن الواقع ودلالة عليه في الدرجة الأولى[1]، فكانت أعماله منطلقات لنشأة التداولية.

ب- الظاهراتية اللغوية : يعدّ الفيلسوف الألماني "إيدموند هوسرل" من أبرز رواد هذا الاتجاه، ويعود الفضل للظاهراتية في اكتشاف القصدية، التي تعد من أبرز الجوانب التداولية، غير أن هذه الفلسفة أغرقت في مسائل بعيدة عن الاستعمال اللغوي، بسبب نزعتها الفلسفية اللاواقعية، فقد "انغمست في البحث في أطر فكرية أعم من الكينونة اللغوية... ومن ثم فهي اتجاه غير تداولي، ولكن هذا الموقف النقدي ينبغي ألا ينسينا أن الفلسفة الظاهراتية قد جاءت بمبدأ إجرائي جد مفيد في اللسانيات التداولية، وهو مبدأ القصدية"[2].

ج- فلسفة اللغة العادية : رائد هذا الاتجاه هو الفيلسوف النمساوي "لودفيغ فيتغنشتاين"، وقد اهتمت هذه الفلسفة بالحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في اللغات العادية. وترى أن المعنى ليس ثابتا ولا محددا [3]. وتعدّ اللغة المادة الأساسية للفلسفة في نظر "فيتغنشتاين"، لذلك أعطى لها أهمية بالغة؛ لأنه يعتقد أن إهمال الفلاسفة للغة وسوء فهمهم لها أدى إلى تلك التناقضات والخلافات بينهم[4].

---

[1]- ينظر، محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985، ص 128.

[2]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص23.

[3]- ينظر، المرجع نفسه، ص20.

[4]- ينظر، المرجع نفسه، ص23 .

وتهتم هذه الفلسفة باللغة العادية بوصفها المعبرة بشكل صادق عن التصورات والمفاهيم، لذلك لم يكتف "فيتغنشتاين" بالدعوة إلى تحليلها فحسب، بل دعا إلى الحكم بها على صحة وبطلان ما يُقال من عبارات[1].

وقد عدّ فيتغنشتاين اللغة لعبة وأداة، حيث تتعدد معاني الكلمات بتعدد استخداماتها في اللغة العادية، وفي السياقات اللغوية التي ترد فيها، فاللغة عنده "ليست كالرجل الصارم، يعرف دائما ماذا يريد، ويفعل دائما طبقا لقاعدة محددة، وإنما كرجل فضفاض متفائل، له مناشط متعددة، يتلاعب بما لديه من أدوات دون صرامة أو خطة محكمة يسير وفقها"[2].

نستخلص من هذا الكلام أن اللغة مرنة بعيدة عن الجمود، لها القدرة على مواكبة هذا التنوع من الأغراض، فهي تشبه غرفة قيادة قطار، تضمّ مجموعة من المقابض التي لها القدرة على القيام بحركات مختلفة، هذه المقابض تطابق الكلمات[3]؛ لأن المقبض الواحد يمكن أن يؤدي أكثر من وظيفة، والكلمة الواحدة تستعمل للدلالة على أشياء عدة حسب سياقها، كذلك الوظيفة الواحدة قد تؤدَّى بأكثر من مقبض، فتوقيف القطار مثلا لا يؤدى بمقبض واحد، وهذا أيضا يماثل اللغة، حيث يمكن استخدام أكثر من كلمة للدلالة على شيء واحد.

---

[1]- ينظر، صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص34.

[2]- محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985، ص 106- 107.

[3]- ينظر، جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، الدار العربية للعلوم والنشر منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة، ط1، 2009، ص307.

محصّلة ما سبق أن هذا الاتجاه في صميم الدرس التداولي، فقد انبثقت من رحمه نظرية الأفعال الكلامية، غير أن التيارين الأول والثاني، وهما الوضعانية المنطقية، والظاهراتية اللغوية خرجا عن التداولية[1].

وقد اكتسبت أعمال "فيتغنشتاين" مكانتها الحقيقية بعدما تبنّاها فلاسفة "مدرسة أكسفورد"، حيث تأثروا بها تأثرا كبيرا، خاصة "أوستن" الذي "بدا أثر فيتغنشتاين عليه واضحا في كتابه **(عندما يكون القول هو الفعل)** ، وتلميذه "سيرل" في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف، واتخاذها معايير وأسسا في دراسة القوى المتضمنة في القول"[2].

ومجمل القول إن الفلسفة التحليلية اهتمت باللغات الطبيعية، وباستعمالا ت اللغة، ومقاصد الكلام، وهو ما مهّد الأرضية لظهور أفعال الكلام على يد "أوستن"، لتظهر بعدها نظريات أخرى كالقصدية ، والملاءمة، والاستلزام التخاطبي وغيرها من النظريات التي كونت فيما بينها التداولية.

ثالثا- التداولية والخطاب التخييلي:

يعد التخييل خطابا منفتحا يستوعب عوالم مختلفة، حيث "يتداخل فيه الصادق والكاذب على مستوى الفضاءات والشخصيات والأزمنة والأحداث، لكنها تتآلف جميعا لتكون عوالم غير صادقة ولكنها تلميحية" [3]، فهو يستطيع أن يمنح لهذا الكل غير المتجانس

[1]- ينظر ، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص22.

[2]- المرجع نفسه، ص 24.

[3]- سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية، رؤية للنشر والتوزيع، دط، 2013، ص80.

انسجاما دقيقا؛ لأن التخييل "محيط معرفي ممتد الأطراف، تتحرك فيه الذاكرة لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة"[1].

وقد تطرق القدماء إلى قضية التخييل في دراساتهم، ولعل الفكر الفلسفي اليوناني كان أول من أثارها من خلال مفهوم المحاكاة، الذي يعكس التجربة الإنسانية في علاقتها بالواقع، فعندما قارن أرسطو بين الشعر والتاريخ بيّن أن الفرق بينهما يكمن في الجانب التخييلي، حيث يقول: "وظاهر ما قيل أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع، بل ما يجوز وقوعه، وما هو ممكن على مقتضى الحال أو بالضرورة، فإنّ المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منثور... بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع، على حين أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه"[2].

وإذا انتقلنا إلى الدرس التداولي وجدنا الخطاب التخييلي لم يحظ بالاهتمام مع بداياته؛ لأن التداولية اهتمت باللغات اليومية المتداولة بين العامة، غير أنها سرعان ما التفتت إلى لغة الخطاب التخييلي، وحاولت إيجاد أرضية تداولية لمقاربتها وكشف خباياها.

فقد خصص "سيرل" فصلا للتخييل وربطه بالكذب، إذ يرى أن التخييل والكذب نشاطان لغويان يتخذان غالبا شكل الإخبار أو الإثبات، دون أن يكونا خالصين؛ لأنه لا توجد قواعد تتحكم في تحقق أو إخفاق الإخبار في التخييل، أو في الكذب، فيُنتهك فيها شرط النزاهة، وهو اعتقاد المتكلم أنه صادق فيما يقوله، ومن يكذب أو ينتج نصا تخييليا لا يعتقد

[1]- المرجع السابق، ص83.

[2]- المرجع نفسه، ص 27.

ذلك[1]، لذلك اعتبر "سيرل" الجمل في الخطاب التخييلي غير جادة، فأقصى أفعالها الإنجازية ، نتيجة خرقها لشرط النزاهة.

غير أنّه لاحظ أن هناك جملا صادقة في النصوص التخييلية، كتلك التي تصف الجبال أو المدن الموجودة في الواقع فهي– في رأيه – تقابل الإخبار الخالص لتوفرها على شرط النزاهة مثل: (كانت لندن عاصمة انكلترا في الوقت الذي نحدثكم عنه أكثر مدن أوروبا سكانا)[2]، فهذه الجملة لم تخرق قاعدة النزاهة لأنها؛ "تتوافق تماما مع الأعمال المتضمنة في الأقوال الحقيقية التي تفيد الإخبار"[3].

لذلك ارتأى أن يقسّم الجمل التخييلية إلى قسمين هما: جمل تحيل على واقع حقيقي لا تختلف عن اللغة العادية، ولا تُقصى فيها الأفعال المتضمنة في القول؛ لحافظها على قاعدة النزاهة، وجمل لا تحيل على واقع حقيقي، خرقت قاعدة النزاهة، تُقصى فيها الأفعال المتضمنة في القول.

وقد خصصت "آن روبول" "Anne Reboul" في مؤلفاتها حيزا مهما لمقاربة التخييل، واستطاعت أن تقدم تصورا يعالج قضية التخييل تداوليا، مبينة أهم الإشكالات التي يجب معالجتها، وإيجاد حلول تداولية لها، معتبرة أن المقاربة التداولية للتخييل رهينة الإجابة على مجموعة من الأسئلة[4]:

---

[1]– ينظر، أن روبول– جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 37.

[2]– ينظر، المرجع نفسه، ص38.

[3]– جاك موشلر– آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر جمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص 470.

[4] - ينظر، سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية، ص78–79.

- كيف تعالج المشكل الأنطولوجي للتخييل؟
- هل يوجد بالفعل المرجع الذي يحيل عليه خطاب التخييل؟
- هل تحتفظ العناصر الموجودة في الواقع بخصائصها المرجعية نفسها؟
- هل التخييل متغير من عالم إلى آخر؟
- إذا كانت أحداث التخييل غير موجودة، فكيف يمكن أن نحدد اتجاهها؟
- ما العلاقة بين الدلالة الناتجة من الخطاب العادي اليومي والدلالة التي ينتجها خطاب التخييل؟

وقد حاولت الإجابة على هذه الأسئلة، "واعتبرت أن مفهوم الملاءمة قادر على استيعاب كل الإشكالات التي ترتبط بالتخييل"[1].

وقامت بإدخال تعديلات على نظرية "سيرل" تمثلت في[2]:

1 –لا يوجد فرق بين الأقوال الصادقة والأقوال الكاذبة في خطاب التخييل أثناء الدراسة.

2 –جميع الأقوال التخييلية التي تتضمن قوة إنجازية إخبارية توافق بالضرورة عمل الإيهام دون نية المغالطة.

3 –خطاب التخييل غير حرفي.

ومن الواضح أنّها ترفض الفصل بين الأقوال التي تحيل على واقع حقيقي والأقوال المتخيلة، فكلها تخضع للمعايير نفسها أثناء الدراسة التداولية، وتعتبر أن كل قول تخييلي ينجز عملا متضمنا في القول؛ أي أن قاعدة النزاهة لا تُخرق في الخطاب التخييلى، وهذا

[1] – المرجع السابق، ص81.

[2] - ينظر، جاك موشلر – آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 471.

عكس ما يراه "سيرل"، وتستدل على ذلك بأنّ قائل الخطاب التخييلي لا ينوي مغالطة مخاطبه، بل "يوهم بأنه يقوم بإخبار، وفعل "أوهم" أو "زعم" ينبغي أن يُفهم بمعنى أن المخاطب في الخطاب التخييلي لا يسعى إلى مغالطة مخاطبه بخصوص التزامه ولا بخصوص نواياه"[1].

وتشترط "آن روبول" في الخطاب التخييلي أن يكون منسجما فقط، حيث تقول: "إن القاعدة الوحيدة التي ينبغي للمتكلم أن يحترمها هي قاعدة الانسجام، فكل الأحداث التي تظهر في التخييل ينبغي أن تكون منسجمة فيما بينها"[2].

حاصل النّظر فيما مضى أن التداولية ولجت النصوص التخييلية والأدبية، واستثمرت نظرياتها في علم اللغة النصي، واستطاعت فك شفراته بإدخالها السياق أثناء الدراسة على الرغم من الصعوبات التي واجهتها؛ لأن النص التخييلي بعيد عن سياقه، وتغلب عليه اللغة الإيحائية، فهو "ضرب من الاستعارة القصوى، فدلالته تتجاوز الملفوظ ذاته، وترتكز على مواضعات مضمرة خاصة، وعلى عقد واقع بين الكاتب والقارئ. إنها طريقة مخصوصة في اللعب مع العلامة" [3]. ويفتقد خطابه مجموعة شروط تداولية خاصة تلك المتعلقة بأفعال الكلام، وهو ما جعل التداوليين يحاولون تخفيف تلك الشروط على النصوص التخييلية، وعدّ لغتها لا تختلف عن اللغة اليومية.

---

[1]- المرجع السابق، ص467.

[2]- المرجع نفسه، ص468 .

[3] - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص194.

الفصل الأول: الإشاريات في مقامات الحريري

- تمهيد

أولا – الإشاريات و الإحالة

ثانيا – أنواع الإشاريات

1 – الإشاريات الشخصية

2 – الإشاريات المكانية

3 – الإشاريات الزمانية

4 – الإشاريات الاجتماعية

5 – أسماء الإشارة

ثالثا – المعرفة المشتركة والإشاريات

تمهيد:

تعدّ الإشاريات من أهم الآليات اللغوية في التحليل التداولي، وتنسب "إلى حقل التداوليات؛ لأنها تهتم مباشرة بالعلاقة بين تركيب اللغات والسياق الذي تستخدم فيه" [1]، فهي عناصر لغوية يقتضي الإلمام بمعناها معرفة العناصر السياقية المحيطة بعملية التلفظ؛ لأنها لا ترتبط بمدلول ثابت، ولذلك تسمى بالمبهمات، "ويكمن إبهامها في كونها لا تدل على غائب عن الذاكرة أو عن النظر الحسّي، فالتلفظ بها يجب أن يكون في سياق يحضر فيه أطراف الخطاب حضورا عينيا، أو حضورا ذهنيا، من أجل إدراك مرجعها"[2].

ويرى أغلب الباحثين أن الإشاريات خمسة أنواع هي: الإشاريات الشخصية، والإشاريات الزمانية، والإشاريات المكانية، والإشاريات الاجتماعية، والإشاريات الخطابية أو النصية، غير أن بعضهم اقتصر على الثلاثة الأولى فقط[3].

ومن أكثرها تمثيلا : أنا، أنت، هنا، الآن ، وهي عناصر تجسّد: المتحدث، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، ففي كل مرة يتحدّثُ فيها "أنا"، فإن هذه الكلمة لا يسعها إلا الإشارة أو الإحالة على الفرد الذي قال "أنا" بهدف الحديث عن نفسه، أما العنصر الإشاري "أنت" فلا يمكنه الإشارة إلا إلى الفرد الذي خاطبه المتحدث بهدف الحديث عنه باعتباره مخاطباً، وظرفا المكان "هنا" والزمان "الآنّ، لا يمكنهما الإشارة إلا إلى مكان وزمان وقوع الملفوظ الذي يشكلان جزء ا منه. ينتج عن ذلك أنه من المستحيل عزو مرجع محدد

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 82.
[2] - المرجع نفسه، ص 80.
[3] - ينظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 17.

لتلك الكلمات إذا كنا نجهل باعتبارنا مخاطباً أو شاهداً مجريات العملية التخاطبية ، أو عن طريق معلومات منعزلة عن عملية التبادل الخطابي وإطارها الزماني –المكاني[1].

وتشترك الإشاريات في قضية واحدة، وهي أن معناها لا يتحدد إلا عند الاستعمال، انطلاقا من نقطة ارتكاز يجسدها إلقاء القول؛ لأنها حسب "ميلنر" " Milner" تفتقر إلى الاستقلال الإحالي؛ كونها لا تستطيع بمفردها تعيين مرجعها [2]، فبالرغم من ارتباطها بمرجع إلا أن هذا المرجع غير ثابت ، فهو يتغير بتغير موضع التلفظ، لكنها تعد عاملا هاما في تكوين بنية الخطاب من خلال القيام بدورها النحوي، ووظيفتها الدلالية، وهو ما يستثمره المرسل في خطابه الذي قد يتجاوز في كليته الجملة الواحدة، فتصبح فائدتها الإحالة إلى المعلومات السابقة التي تلفظ بها أحد طرفي الخطاب، والتي أصبحت جزءا من المعلومات المشتركة[3].

وهناك إشاريات ظاهرة في الخطاب، وأخرى كامنة في بنيته العميقة، حيث لا يصرح بها المرسل؛ لأنّه عالم أن الكفاءة التداولية للمرسل إليه تسمح له باكتشافها، فلا " يقف دور الإشاريات في السياق التداولي عند الإشاريات الظاهرة، بل يتجاوز إلى الإشاريات ذات الحضور الأقوى، وهي الإشاريات المستقرة في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ به، وهذا ما يعطيها دورها التداولي في استراتيجة الخطاب، وذلك؛ لأن التلفظ يحدث من شخص له سمات معينة، وفي مكان وزم ان معينين، هما مكان التلفظ ولحظته، لذلك فإن الخطاب

[1] - ينظر، جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص 27.
[2] - ينظر، آن روبول- جاك موشلر، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 110.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 80-81.

الواحد يجمع على الأقل ثلاث إشاريات هي: (الأنا، الهنا، الآن) [1]، وعليه فإن كل ملفوظ يتضمن ثلاث إشاريات على الأقل وهي: الإشاريات الشخصية ، والإشاريات المكانية ، والإشاريات الزمانية، وتتواجد في كفاءة المرسل التداولية ، لذلك فقد لا يصرح بها المتكلم، ويفهما المتلقي دون أن يكلّف نفسه عناء البحث، ومثال ذلك:

- **"أما الحِمام ميعادُكَ، فما إعدادُكَ؟ وبالمَشيبِ إنذارُكَ، فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ، فما قِيلُكَ؟"**[2]

يتضمن هذا الملفوظ ثلاث إشاريات هي (الأنا، الهنا، الآن) ؛ لأن بنية الخطاب في صورته العميقة هي:

- أنا أقول لك، هنا، **"أما الحِمام ميعادُكَ، فما إعدادُكَ؟ وبالمَشيبِ إنذارُكَ، فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ، فما قِيلُكَ؟"**[3].

وينحصر دور الإشاريات في تعيين المرجع الذي تشير إليه، وتتعلق دلالتها بالمقام؛ لأنها أشكال فارغة في المعجم الذي يمثل المقام الصفر، وتقوم بوظيفة تعويض الأسماء[4].

وقد أولت اللسانيات التداولية الأهمية البالغة للوظيفة المرجعية، ذلك أنها تربط بين السياق اللغوي وسياق الموقف، وقد صنفها "رومان جاكبسون" " Roman jakobson" ضمن الوظائف اللغوية الستة، ويرى أنها أساس كل تواصل، فهي تحدد العلاقات بين المرسل

---

[1] - ينظر، المرجع السابق، ص 81.
[2] - الحريري، أبو محمد القاسم بن عثمان، مقامات الحريري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 4، 2003، ص 19.
[3] - المصدر نفسه، ص 19.
[4] - ينظر، الأزهر الزناد، نسيج لنص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1993، ص 116.

والشيء أو الغرض الذي ترجع إليه، وتعدّ أكثر وظائف اللغة أهمية في عملية التواصل، مقارنة ببقية الوظائف التي تظهر ثانوية أمامها[1].

ويعد شرط الصدق من أهم الشروط الواجب توفرها في العناصر الإشارية، فلابد من وجود مرجع خارجي للعنصر الإشاري، وتطابق هذا العنصر مع مرجعه، فإذا قال رجل: "أنا ابن صلاح الدين الأيوبي"، يجب أن يتطابق العنصر الإشاري "أنا" مع مرجعه، فيكون ابن صلاح الدين، وعليه فإن الإشاريات تطرح قضية الإحالة وصلة اللغة بما تعنيه عند الاستعمال، وهو متعلق بشرط الصدق، فصدق الملفوظ يرتبط بوجود تلك المرجعيات المشار إليها في العالم[2].

والملاحظ أن هناك تداخل بين الإشاريات والإحالة، لذلك يتوجب علينا التفريق بينهما وإبراز أهم الآراء الخاصة بهذا الموضوع.

أولا- الإشاريات والإحالة:

الإحالة هي فعل تداولي؛ لأنها ترتبط بموقف تواصلي معين، فهي متعلقة بمخزون كما يتصوره المتكلم أثناء التخاطب، وفقا لتقديره للإمكانات المتوفرة لدى المخاطب للتعرف على الذات المعنية بالإحالة، كما أنها عملية تعاونية، وهذا نسبة إلى "مبدأ التعاون" "لغرايس"؛ لأن المتكلم يهدف إلى تمكين المخاطب من معرفة الذات المقصودة، فيقوم بتقديم المعلومات التي يمتلكها والتي تمكّن المخاطب من انتقائها من بين مجموعة من الذوات،

---

[1] - ينظر، فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص 67.
[2] - ينظر، آن روبول - جاك موشلر، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 110.

لذلك فهي محكومة بقواعد "غرايس"، خاصة "قاعدة الكم" التي تحرص على أن يقدم المتكلم المعلومات التي تكفي للتعرف على الذات المقصودة دون زيادة أو نقص، فإذا كانت دونه قد يقع اللبس لدى المتلقي، فتفشل عملية الإحالة، وإذا فاقته أو زادت عن حدّها خرج المعنى عن حقيقته إلى أغراض أخرى[1].

لذلك فإن أهم ما يجدر لفت النظر إليه هو أن "ظاهرة الإحالة أدخل في التداول منها في الدلالة، إذ أنها ترتبط بالمقام، وتحديدا بالمعلومات التي يفترض المتكلم وجودها لدى المخاطب المحال عليه حين عملية التواصل"[2].

وتتلاقى العناصر الإشارية مع العناصر الإحالية في جملة من النقاط، لعل أهمها إحالتها على مراجع غير ثابتة ولا محددة، غير أن الإحاليات "تقابل غالبا تضاديا مع الإشاريات، حيث يعرف الإحالي بأنه يرجع إلى السياق اللغوي، بينما يرجع العنصر الإشاري إلى السياق المقامي؛ أي إلى المعطيات المدركة المتوافرة في سياق التواصل" [3]، وعليه فإن الإشاريات "تقابل العناصر الإحالية التي ترتبط بالسياق، وما يتعلق به من ملابسات"[4].

وإذا كانت الإشاريات عبارة عن عناصر لغوية تحيل على مراجع خارجية، فإنها تتطابق مع الإحالة المقامية، وهي "إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي؛ كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد على ذات صاحبه المتكلم...

---

[1] - ينظر، أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2001، ص 138.

[2] - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف، الرباط، الطبعة الأولى، 2010، ص 74.

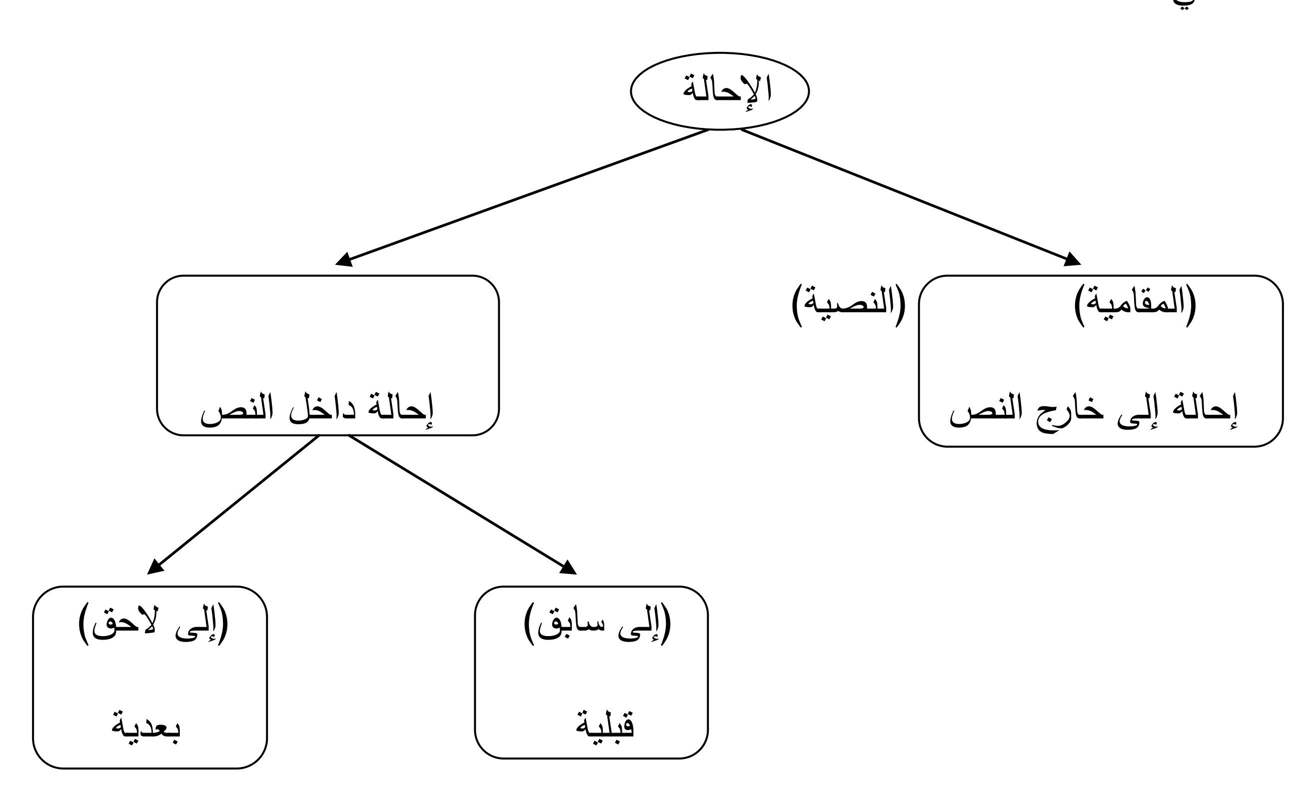
[3] - بشير دردار، الكتابة ورهانات الإقناع، مقاربة تداولية لرسائل الجاحظ من خلال مفهوم التعدد، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012-2013، ص 192.

[4] - الأزهر الزناد، نسيج لنص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1993، ص 116.

ومهما تعددت أنواع الإحالة فإنها تقوم على مبدأ واحد، هو الاتفاق بين العنصر الإشاري والعنصر الإحالي في المرجع"[1].

لذلك يرى هاليداي " Halliday" ورقية حسن أن الإحالة المقامية تساهم في خلق النص؛ لكونها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر، بينما تقوم الإحالة النصية بدور فعّال في اتساق النص[2].

والجدير بالذكر أن الإحالة تنقسم إلى نوعين رئيسيين وهما: الإحالة المقامية والإحالة النصية، وتتفرع الثانية إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية، ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي[3]:



---

[1] - المرجع السابق، ص 119.
[2] - ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 17.
[3] - المرجع نفسه، ص 17.

غير أن "ج.يول" " G.Yule" يعتبر الإحاليات "تفريعا أو اشتقاقا من الإشاريات، وأنها لا تعدو أن تكون مختصة بوظيفة مواصلة الإشارة" [1]. فتصبح "الإحاليات عندئذ إشاريات إلى الإشاريات الأصلية التي تحيل إلى خارج النص"[2].

ويمكن القول أن الإشاريات هي عناصر لغوية تحيل على مراجع خارجية غير محددة، لذلك فهي في حاجة إلى السياق لتحديدها، أما الإحالة فهي تنقسم إلى قسمين، إحالة نصية تعود على مراجع مذكورة في النص، وإحالة مقامية تتطابق مع الإشاريات.

وبعد هذه النظرة الموجزة حول الإشاريات نحاول بيان أنواعها وتطبيقها على مقامات الحريري.

ثانيا- أنواع الإشاريات:

1- الإشاريات الشخصية:

تقوم هذه العناصر على مفهوم دور الشخوص المشاركة في عملية التلفظ، وهي إشاريات تدل على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، كما أنها عاجزة بمفردها على تحديد إحالتها الحاصلة عند الاستعمال، لذلك عدّها "ميلنر" فاقدة للاستقلالية الإحالية[3].

وقد وضع النحاة الإغريق واللاتينيون تسمية الضمائر من خلال إجراء الاسم الذي يطلق على الشخصية المسرحية أو الدور المسرحي استخداما مجازيا، يؤدي فيه المتكلم دورا رئيسا، ويؤدي السامع دورا آخر يرتبط بالدور الأول، ثم جرت ترجمة هذا المصطلح إلى

---

[1] - بشير دردار، الكتابة ورهانات الإقناع مقاربة تداولية لرسائل الجاحظ من خلال مفهوم التعدد، ص193.
[2] - المرجع نفسه، ص 194.
[3] - ينظر، آن روبول - جاك موشلر، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 374.

اللاتينية باستعمال لفظ " persona" ويعني القناع، واستخدمه النحاة العرب للدلالة على الشخص، وهو يتعلق بمفهوم الخفاء والدقة[1].

وقد تطرق العرب القدامى إلى دراسة الضمائر وقاموا بتقسيمها إلى متصلة ومنفصلة، وفي هذا يقول السكاكي: "اعلم أن الضمير عبارة عن الاسم المتضمن للإشارة إلى المتكلم وإلى المخاطب وإلى غيرهما بعد سبق ذكره، هذا أصله، وهو، أعني الضمير، ينقسم إلى قسمين من حيث الوضع، قسم لا يسوغ الابتداء به ويسمى: متصلا، وقسم يسوغ في ذلك ويسمى: منفصلا"[2].

وتتفرع الضمائر في اللغة العربية حسب الحضور والغياب إلى فرعين، هما: ضمائر الحضور وضمائر الغيبة؛ أما الأولى فتتفرع بدورها إلى متكلم، وهو مركز المقام الإشاري، وصاحب الخطاب، باعتباره المتلفظ به، وإلى مخاطب يقابله في مقام التخاطب، ويوجَّه إليه الخطاب؛ وكل مجموعة تتفرع حسب الجنس والعدد إلى عدة أقسام[3].

وتعبّر الضمائر عن "معان عامة، هي الحضور، والغيبة على الإطلاق، فإن جرى تفصيلها فإلى معان عامة أخرى هي الإفراد، والتثنية، والجمع، ثم التذكير، والتأنيث، وهذه الدلالة على المعاني العامة تجعل الضمائر بحاجة إلى ما يخصص معناها كالمرجع لضمير الشخص والبدل للإشارة والصلة للموصول"[4].

---

[1] - ينظر، الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 117.
[2] - السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 116.
[3] - ينظر، الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 117.
[4] - تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2000، ص 92.

وبالرّغم من وجود مراجع خارجية للضمائر إلا أنها غير ثابتة، لذلك يُعتمد على السياق في تحديدها، خاصة ضمائر المتكلم والمخاطب؛ لأن "ضمير المتكلم والمخاطب بطبعهما لا يحيلان إلى مذكور سابق، ويتطلب استعمالهما معرفة سابقة بالهوية بالنسبة لطرفي الاتصال"[1].

وهناك مجموعة من المعايير التي تتحكم في استعمال الضمائر كمعيار السن أو البيئة وغيرهما، كما يختلف بين سكان المدن والقرى، وهذا حسب نظرة المرسل للمرسل إليه، لذلك فإن غرض الإسناد إلى هذه الأدوات يتجاوز معيار الوظيفة النحوية البحتة إلى المعيار التداولي[2]، وهذا ما يتبين في بعض المواضع التي يتعمد فيها المتكلم استعمال ضمير الجمع لمخاطبة المفرد، أو العكس.

وقد توصلت "آن روبول" إلى نتائج متعلقة بالضمائر وهي:[3]

أ -يمكن تعيين ضميري المتكلم والمخاطب مباشرة من خلال دورهما في التواصل، بينما لا يمكن تعيين ضمير الغائب، فهو يمثل عددا لا متناهيا من الأفراد.

ب- قد يحل ضمير المتكلم محل ضمير المخاطب، والعكس صحيح أثناء التخاطب.

ج- يُعتبر ضمير الغائب الضمير الوحيد الذي يمكن أن يُستعمل في الدلالة على الجوامد.

وعليه فإن ضمائر المتكلم والمخاطب لا يمكن أن ترد لغير العاقل، أما ضمائر الغائب فتستخدم للدلالة على الشخوص وللجوامد أيضا، وهذا ما يظهر في قول الحارث بن

---

[1] - روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص 333.
[2] - ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 287-288.
[3] - ينظر، آن روبول - جاك موشلر، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 359

همام: " **فلمّا أُبْتُ منْ غُربَتي إلى منْبِتِ شُعْبَتي، حضَرْتُ دارَ كُتُبِها التي هيَ مُنتَدى المتأدّبينَ، ومُلتَقَى القاطِنينَ منهُمْ والمُتغرّبينَ**"[1].

استخدم المتكلم ضمائر الغائب في هذا القول، وذلك في قوله: "كتبها، منهم"، يحيل ضمير الغيبة في "كتبها" على مرجع يكمن في شيء جامد وهو "منبت شعبتي"، أي "موضع إقامتي ومسقط رأسي"[2]، أما الضمير المقترن بحرف الجر "من" فهو يحيل على الأشخاص.

ولا يمكن تصوّر خطاب خالي من الضمائر، ف"الأنا" يرد في كل خطاب؛ لكونه يحيل على المرسل الذي يُعتبر "الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلفظ به، من أجل التعبير عن مقاصد معينه، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده استراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقيق منفعته الذاتية، بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مناسبة" [3]، غير أنه لا يصرح "بالأنا" دائما؛ لأنه يعول على وجودها بالقوة في كفاءة المرسل إليه، مما يجعله يؤول الخطاب تأويلا مناسبا [4]، وهذا ما يتبين في قول الحارث: " **جدَحَتْ لهُ يَدُ الإمْلاقِ كأس الفِراقِ، وأغْراهُ عدَمُ العُراقِ بتَطْليقِ العِراقِ**"[5].

إن بنية الخطاب في صورته العميقة هي:

-أنا أقول: جدَحَتْ لهُ يَدُ الإمْلاقِ كأس الفِراقِ، وأغْراهُ عدَمُ العُراقِ بتَطْليقِ العِراقِ.

---

[1] - مقامات الحريري، ص 27.
[2] - المصدر نفسه، ص 27.
[3] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45.
[4] - ينظر، المرجع نفسه، ص 82
[5] - مقامات الحريري، ص 22.

وعليه فإن كل ملفوظ يتضمن في بنيته العميقة ضمير المتكلم الذي يحيل على المرسل باعتباره صاحب القول المتلفظ به.

وهو ما ينطبق على الخطابات المتخيلة التي يكون فيها المتلقي افتراضي، مثل خطاب المقامات، فالحارث هنا لا يحتاج إلى ذكر ضمير المتكلم ليعلم المتلقي أنه صاحب القول؛ لأن الكفاءة التداولية للمتلقي تسمح له باكتشاف صاحب الملفوظ دون أن يصرح به المتكلم، كما ينطبق أيضا مع الخطاب اليومي الذي يكون فيه المرسل إليه حقيقيا، ويقصد بعينه، فلو قلنا:

-حضر الأستاذ.

فإن بنية الخطاب في صورته العميقة هي:

-أنا أقول: حضر الأستاذ.

ولعل أهم ما يبين حضور الأداة الإشارية "أنا" في ذهن المرسل إليه هو إحالته لفظا على المرسل عندما ينقل هذا الخبر إلى مرسل إليه آخر شاك في الخبر، بقوله:

-هو قال: حضر الأستاذ.

فالمرسل لا يتلفظ بضمير المتكلم في بداية خطابه خاصة عندما يكون المرسل إليه حاضرا، إلا عند افتراضه وجو د اعتراض مسبق لكلامه، أو تساؤل...، وفي هذه الحالة تكون الأداة الإشارية ضميرا مستترا ، وهي ضرب من الإشاريات التي تدرك الإحالة عليها من السياق ،

فلا يتلفظ بها المرسل لدلالة الحال عليه، ويتطلب بعضها حضور أطراف الخطاب حضورا عينيا[1].

أ -ضمائر المتكلم:

تعدّ ضمائر المتكلم من أعرف الضمائر؛ لأنها لا تحيل إلا على صاحب القول، وفي هذا يقول ابن يعيش: "فأعرف المضمرات المتكلم؛ لأنه لا يوهمك غيره، ثم المخاطب، والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة، وأضعفها تعريفا كناية الغائب؛ لأنه يكون كناية عن معرفة ونكرة حتى قال بعض النحويين كناية النكرة نكرة"[2].

وقد وردت ضمائر المتكلم في خطاب المقامات مستترة ومتصلة ومنفصلة، كما جاءت للمفرد والجمع، فلا نكاد نجد جملة خالية منها؛ لأنها تحيل على صاحب القول، لذلك سنقتصر على بعض نماذجها، منها قول الحارث: " **لمّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغترِابِ، وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرابِ، طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ الى صنْعاء اليَمَنِ، فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ، باديَ الإنْفاضِ، لا أمْلِكُ بُلْغَةً، ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً، فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثْلَ الهائِمِ، وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ، وأرُودُ في مَسارِحِ لمَحاتي، ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي، وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي، أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي، وتُرْوي رِوايتُه غُلّتي**"[3].

---

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 83.

[2] - ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، الجزء الثالث، ص 84-85.

[3] - مقامات الحريري، ص 17.

الملاحظ في هذه العبارات أن المتكلم لم يصرح باسمه، غير أن المتلقي استطاع تحديده، وذلك عن طريق الضمير المنفصل المقترن بالأفعال: "اقتعدت، أنأتني، دخلتها، طفقت"، والضمير المستتر في الأفعال "أجول، أرود، أخلق، أبوح". غير أن هذه الضمائر لا تكفي لتحديد المرجع الدقيق لها؛ لأنها تعود على المتكلم العام، دون أن تقصد شخصا بعينه، فهي في حاجة إلى السياق اللغوي والسياق المقامي لمعرفة مرجعها الحقيقي.

ولمعرفة مرجع الضمير المستتر لابد من توفر حالة من الحالتين وهما:

- إما أن يكون المتلقي حاضرا وقت التلفظ بالخطاب.
- وإما أن يحيل الضمير على مرجع ذُكر في الخطاب.

ولابد من تطابق العنصر الإشاري مع مرجعه؛ لكون " الإشاريات (DEICTIQUES) تشكل جزءاً من المرجعيات (DEIXIS)؛ لأنها لا تشير إلا بوجود مرجع ما. فبين (أنا) وبين فرد ما يتحدث عن نفسه في لحظة معينة، تكون العلاقة علاقة حقيقية (RELATION DE FAIT) : هي العلاقة الناتجة عن لفظ هذا الفرد لكلمة: أنا"[1].

وعليه فإن ما يشترط توفره في العناصر الإشارية أن تكون العلاقة حقيقية بينها وبين مراجعها، لذلك أضاف فلاسفة اللغة شرط الصدق للإشاريات، إذ لابد من توفره، فإذا قالت امرأة: "أنا أم نابليون"، لا يكفي أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة، فيجب التحقق من مطابقته للواقع، بحيث تكون هذه المرأة أم نابليون فعلا، وأن تكون قد قيلت في الظروف

[1] - جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص 28.

التاريخية المناسبة، فإذا لم يتحقق شرط الصدق كانت الجملة كاذبة[1].

والملاحظ أن ضمير المتكلم المفرد ورد في المقامات إما ليعرف بصاحب القول أو لينجز فعلا إخباريا، فمن بين النماذج التي تمثّل الحالة الأولى:

1- **"فقلتُ: أنا الحارثُ"[2]**

2- قال أبو زيد: من الرجز:

2- أنا السَّروجـــيُّ وهـذا ولَـدي   والشّبْلُ في المَخْبَرِ مثلُ الأسَدِ[3]

3- قال أبو زيد: من المنسرح

3- أنا امرؤٌ ليسَ في خَصائِصِهِ   عيـبٌ ولا في فَخَـــارِهِ رِيــَبُ[4]

4- قال أبو زيد: من الوافر

4- أنا أُطـــــــروفَـــةُ الزّمــــــــا   نِ وأعجــويـــــَةُ الأُمَـــــمْ[5]

5- **"أنا منْ نظّارَةِ الحرْبِ، لا منْ أبناء الطّعْنِ والضّرْبِ"[6].**

يخبرنا المتكلم في المثال الأول عن هويته؛ لأن المخاطَب شاك في هذا الأمر، لذلك لجأ إلى التصريح باسمه، ليزيل تلك الضبابية التي كانت في ذهن المتلقي، فجاء بضمير المفرد المتكلم، وأتبعه باسمه، ليتأكد المخاطب من هويته.

---

[1] - ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18.

[2] - مقامات الحريري، ص 38.

[3] - المصدر نفسه، ص 84.

[4] - المصدر نفسه، ص 90.

[5] - المصدر نفسه، ص 126.

[6] - المصدر نفسه، ص 168.

ويبدو أن استخدام الضمير مرفوقا بالاسم يجعله مصرحا به، إذ لا حاجة لنا للسياق كي نتعرف على مرجعه، فقد أزال اللبس عن الملفوظ، هذا ما جعل المتلقي لا يبذل جهدا في تحديد مرجع هذا العنصر الإشاري.

وإذا كان ورود الضمير في المثالين الأول والثاني مقترنا باسم المتكلم ، فإنه جاء في المثال الثالث، والرابع، والخامس مرفوقا بملفوظات إخبارية تعرّف بالمتكلم ولا تصرّح به، فهي تلمح إليه، وذلك بتقديم صفاته.

فالملاحظ في المثال الثالث أن المتكلم ذكر الضمير المعبّر عنه، وأتبعه بذكر صفاته، كما نلمح نوعا من "الأنا" في هذا الملفوظ، فهو يعتز ويفتخر بنفسه، حيث وصف نفسه بالكمال، فلا عيب فيه، وإذا علمنا أن هذا الضمير يمثّل أبا زيد السروجي، الذي لا يكاد يخلو من عيب، نستخلص أن هذا الملفوظ خال من الصدق.

كذلك في المثالين الرابع والخامس ذكر المتكلم بعض صفاته المقترنة بضمير المتكلم المفرد، دون التصريح باسمه، وعليه فإن المتلقي في حاجة إلى التعرّف على العناصر السياقية لمعرفة المتكلم، فلا يكفي ذكر الضمير لبيان المرجع المقصود، لذلك فإن "ضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية؛ لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه"[1].

وتساق جميعا فيما يأتي:

ضمير المتكلم + اسم المرجع ←———————— مرجع محدد

[1] - محمد خطابي، لسانيات النص ، ص 18.

ضمير المتكلم− السياق ←———— مرجع غير محدد

ضمير المتكلم+ السياق ←———— مرجع محدد

وعليه فإن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب الموضوع في سياقه، إذ كثيرا ما يوضع المتلقي أمام خطاب بسيط من حيث لغته، ولكنه قد يتضمن بعض الإشاريات التي تجعله غامضا في حالة عدم الإحاطة بسياقه؛ لأن لهذا الأخير دورا هاما في تواصلية الأسلوب وفي انسجامه، وما كان ليكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه[1].

وقد يستخدم المتكلم بعض الإشاريات للتهرب والتملص من مسؤولية الخطاب، عندما لا تحيل على مرجع محدد، بل إلى عدة مراجع، مما يجعل المخاطب يؤول الملفوظ تأويلا خاطئا، فيقع في شرك المتكلم، الذي يهدف إلى تضليله، وهذا ما نلاحظه في خطاب الغلام الذي اشتراه الحارث بن همام، حيث قال:

يا مَنْ تلَهّبَ غيظُهُ إذْ لمْ أبُـــحْ   باسْمي لهُ ما هَكذا مَنْ يُنصِفُ

إنْ كان لا يُرضيكَ إلا كشْفُــــهُ   فأصِخْ لهُ أنا يُوسُفٌ أنا يوسُفُ

ولقد كشَفْتُ لكَ الغِطاء فإن تكنْ   فطِناً عرَفتَ وما إخالُك تَعرِفُ[2].

استخدم المتكلم الأداة الإشارية "أنا" التي تحيل عليه، وقد اقترنت بالاسم "يوسف" لتضليل المخاطب؛ لأن هذا الاسم يحمل دلالات عديدة، كالجمال، والعفة، والصبر، وظلم ذوي القربى، وبيع الحر، وقد يكون اسما حقيقا للمرجع المقصود، ليجعل المتلقي يختار دلالة من هذه الدلالات التي يصعب الوصول إلى مرجعها الحقيقي، وهو ما حصل للحارث بن همام،

---

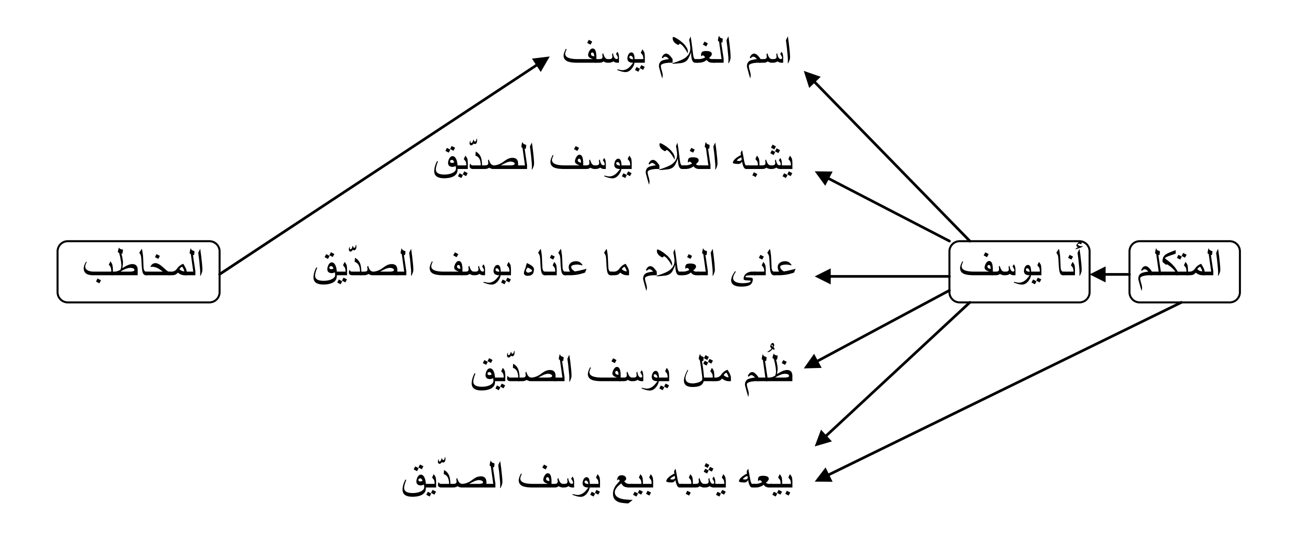
[1] - ينظر، المرجع السابق، ص 56.

[2] - مقامات الحريري، ص 363.

الذي وقع في شرك الغلام، ولم يعرف المرجع الحقيقي، فقام بشرائه، ليتبين فيما بعد أنه ليس عبدا، بل حر لا يباع.

وقد تغلب عليه الغلام أثناء وقوفهما أمام القاضي، إذ بين له أنّه أخبره بأنّه حر مثل يوسف الصديق، هذا ما جعل القاضي يبرئه.

ويمكن تبيان ذلك في المخطط الآتي:



كما ورد ضمير المتكلم الجمع "نحن" في خطاب المقامات، الذي قد يستعمل للجمع بين المتكلم والمخاطَب، فيكون دليلا على التضامن بينهما، أي بين " أنا وأنتم" في بنية الخطاب العميقة.

وقد قسمت "لاكوف" "lakoff" دلالة "نحن" إلى قسمين رئيسين هما:

أ -"نحن" الشاملة

ب-"نحن" القاصرة أو الحاصرة .

يدخل المرسل إليه في الصنف الأول، ويخرج من الصنف الثاني، ويدل كل قسم على التضامن رغم التفاوت الظاهر بينهما؛ فالأول يتضمن قوة عاطفية؛ لأنه يجمع بين المرسل

والمرسل إليه، وكأنهما مرسل واحد، فهما يشتركان في القضية نفسها، في حين يبدو المرسل في القسم الثاني، وكأنه يمارس نوعا من السلطة والصلاحية[1].

ومن نماذجه في المدونة: " **يا هذا إنّك حضرْتَ بعْدَ العِشاء، ولمْ يبْقَ إلا فَضلاتُ العَشاء، فإنْ كنتَ بها قَنوعاً فما تجِدُ فينا مَنوعاً. فقال: إنّ أخا الشّدائِدِ. ليَقْنَعُ بلَفَظاتِ المَوائِدِ، ونُفاضاتِ المَزاوِدِ، فأمرَ كُلٌ منهُمْ عبْدَهُ أنْ يزوّدَهُ ما عِندَهُ، فأعجَبَهُ الصُنْعُ وشكرَ عليْهِ، وجلَسَ يرْقُبُ ما يُحْمَلُ إليْهِ، وثُبْنا نحنُ إلى استِثارَةِ مُلَحِ الأدَبِ وعُيونِه، واستِنْباطِ مَعينِهِ من عُيونِهِ، إلى أنْ جُلْنا فيما لا يَستَحيلُ بالانعِكاسِ**"[2].

يبين الحارث ابن همام في هذا القول تلك المحبة والألفة التي كانت بينه وبين جماعة في مسجد مغربي، حيث أُعجب إعجابا شديدا بعلمهم وأدبهم، فقرر أن يلحق بهم عسى أن يستفيد منهم، لذلك جاء بالضمير "نحن" الذي يُحيل على مرجع يتمثّل في الحارث ورفقته، وهو عنصر إشاري يعبّر عن التضامن والتعاون الموجود بينهم، حيث بيّن أنهم فرد واحد لهم غاية مشتركة، كما بيّن الانتماء إلى الجماعة.

وقد ورد الضمير المنفصل "نحن" بعد الضمير المتصل المعبّر عن الجمع المتكلم، وذلك في قوله: " **وثُبْنا**"، فلو حذف العنصر الاشاري "نحن" لبقي القول سليما لغويا؛ لأن الضمير المتصل يغنينا عنه، غير أن المتكلم استخدمه لغرض تداولي يكمن في إخراج رجل من زمرتهم جاء إلى مجلسهم ، وأبقى على من كانوا معه، وهم الذين تتوفر فيهم تلك الصفات التي سبق ذكرها، والتي جسّدها هذا الضمير.

---

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 292-293.
[2] - مقامات الحريري، ص 159.

لذلك فإن الإشاريات تساهم في تأسيس العلاقة الاجتماعية، وتطويرها. وقد تكون مؤشرا على الانتماء إلى جماعة معينة، أو دليلا على الاتفاق في الرأي، خاصة إذا لم يعلم المرسل إليه رأي المرسل[1]، مثل سؤال أفراد العائلة لأبيهم:

- نتمنى أن توافق على سفرنا إلى المكسيك، ولكن المشكلة هي: كيف يمكن أن نكتشف المناطق الآمنة؟
- نحن مهتمون بهذه الناحية سوف نسأل.

فهذا دليل على موافقته على السفر، وعليه فإن هذه الأداة الإشارية "نحن" أدت وظيفتين هما[2]:

- الجمع بين المتكلم والمخاطب.
- تعد مؤشرا على الوظيفة التداولية أو القصدية وهي الموافقة.

وفي قول الحارث: **فأزْمَعْنا أن نُقَضّيَ ظِلَّ اليومِ في حِلّةِ القومِ، وبينَما نحنُ نتخيّرُ المُناخَ ونَرودُ الوِرْدَ النُّقاخَ إذ رأيْناهُمْ يركُضونَ**[3].

يبين العنصر الإشاري "نحن" ذلك المصير المشترك، بين المتكلم وأصحابه، فقد ربط بينهم هذا الضمير وجمعهم، وكأنهم رجل واحد، ولعل أهم ما يبين هذا الانتماء هو دخول عنصر دخيل إلى الجماعة، فأخرجه المتكلم من زمرة الضمير"نحن"، ليحيل عليه بضمير الغائب.

ب- ضمائر المخاطب:

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 287.
[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 287.
[3] - مقامات الحريري، ص 330.

استخدمت ضمائر المخاطب في خطاب المقامات بجميع أصنافها وهي المفرد المثنى والجمع، فقد ورد الضمير المنفصل "أنت" الذي يحيل على مرجع يكمن في المفرد المخاطب، ومن نماذجه: "**حكى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قال: نهضْتُ من مدينةِ السّلامِ لحِجّةِ الإسلامِ، فلمّا قضيْتُ بعَونِ اللهِ التّفَثَ، واستبَحْتُ الطّيبَ والرَّفَثَ، صادَفَ موسِمُ الخيْفِ معْمَعانَ الصّيفِ. فاستَظْهَرْتُ للضّرورةِ بما يَقي حرَّ الظّهيرةِ، فبَينَما أنا تحتَ طِرافٍ مع رُفقَةٍ ظِرافٍ، وقدْ حَمِيَ وَطيسُ الحصْباء، وأعْشى الهَجيرُ عينَ الحِرْباء، إذ هجَمَ عليْنا شيخٌ مُتَسَعْسِعٌ، يتْلوهُ فتًى مترَعرِعٌ، فسلّمَ الشيخُ تسْليمَ أديبٍ أريبٍ، وحاوَرَ مُحاوَرَةَ قَريبٍ لا غَريبٍ، فأُعْجِبْنا بما نثَرَ منْ سِمْطِهِ، وعجِبْنا منِ انبِساطِه قبلَ بسْطِهِ، وقُلْنا لهُ: ما أنتَ، وكيفَ ولَجْتَ وما استأذَنْتَ؟**"[1]

اقترن العنصر الإشاري "أنت" في هذا المثال بالاستفهام، يحاول من خلاله المتكلمون معرفة المخاطب، والملاحظ استخدامهم "ما" التي تفيد غير العاقل للإحالة على الرجل الغريب، ولعل هذا راجع إلى الظرو ف المقامية، فبالعودة إلى سياق الموقف نجد الجماعة أُعجبت إعجابا شديد به، هذا ما جعلهم يحيلون عليه ب"ما"، التي جسدت الدهشة والاستغراب، فكأنهم أرادوا قول: "هل أنت من بني البشر؟"

وعليه فإن هذا الاستخدام تجاوز البعد اللغوي، ليتحكم فيه البعد التداولي.

نستخلص من هذا أن سياق الموقف يتحكم في بنية الملفوظ، كما يتضح من الإشاريات أن هناك تفاعلا بين اللغة والموقف، فهذا الأخير يؤثر بقوة في استعمال طرق

---

[1] - المصدر السابق، ص 136-137.

الإجراء[1]، كما أن هذه العناصر اللغوية لا يمكن فك شفراتها إلا بالعودة إلى سياق التلفظ؛ لأنها لا تكتفي بذاتها، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها[2].

وقد يرد الضمير "أنت" للإحالة على مخاطب يعرفه المتكلم معرفة جيدة، وهو ما يبينه قول أبي زيد مخاطبا ابنه: " **يا بُنيّ إنهُ قد دنَا ارتِحالي منَ الفِناء، واكتِحالي بمِروَدِ الفَناء، وأنتَ بحمْدِ اللهِ وليُّ عهْدي، وكبْشُ الكَتيبَةِ السّاسانيّة منْ بعْدي**" [3]، نلاحظ أن المتكلم في مقام نصح لابنه بعدما أحس بالكبر ودنو أجله، وقد استخدم ضمير المخاطب الذي يحيل على ابنه، والذي سبق وأن أشار إليه في خطابه وذلك في قوله: "يا بني"، وبذلك فإن المتلقي في هذه الحالة لا يحتاج إلى إعمال الفكر لمعرفة المشار إليه؛ لأن المرجع مذكور في الخطاب، وهو ما يُعرف بالإحالة القبلية.

وفي قول أبي زيد مخاطبا جمعا غفيرا: " **إلامَ تسْتَمرُّ على غَيّكَ، وتَستَمْرئُ مرْعَى بغْيِكَ؟ وحَتّى مَ تتَنَاهَى في زهوِكَ، ولا تَنْتَهي عن لَهوِكَ؟ تُبارِزُ بمَعصِيَتِكَ مالِكَ ناصِيَتِكَ، وتجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك على عالِمِ سَريرَتِكَ، وتَتَوارَى عَن قَريبِكَ وأنتَ بمَرْأى رَقيبِكَ، وتَستَخْفي مِن ممْلوكِكَ وما تَخْفى خافِيَةٌ على مَليكِكَ، أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُكَ إذا آنَ ارتِحالُكَ؟ أو يُنْقِذُكَ مالُكَ حينَ توبِقُكَ أعمالُكَ؟ أو يُغْني عنْكَ ندَمُكَ إذا زلّتْ قدَمُكَ؟ أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُكَ يومَ يضُمّكَ مَحْشَرُكَ؟ هلاّ انتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتِدائِكَ، وعجّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ، وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِكَ، وقدَعْتَ نفْسَكَ فهِيَ أكبرُ أعدائِكَ؟ أما الحِمام ميعادُكَ فما إعدادُكَ؟**

---

[1] - ينظر، روبرت ديبوقراند، النص والخطاب والإجراء، ص 339.
[2] - ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 17.
[3] - مقامات الحريري، ص 536.

وبالمَشيبِ إنذارُكَ فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ فما قِيلُكَ؟ وإلى اللّه مَصيرُكَ فمَن نصيرُكَ؟ طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ، وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ، وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ، وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتمارَيْتَ وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ" [1]، يحاول المتكلم في هذا الملفوظ التأثير في المستمعين ، وذلك بذكره لأعمالهم الشنيعة، وتحذيرهم من يوم الوعيد، والملاحظ أنه استخدم ضمير المفرد المخاطب للإحالة على الجمع، وهذا نتيجة عوامل تداولية لعل أهمها أسلوب الهجاء الذي عمد إليه، فلا تكاد عبارة تخلو منه، وهو ما جعله يوظّف ضمير المفرد ليحسّ كل فرد من المخاطبين أنه غير مقصود بالهجاء، فيأمن بذلك ردة الفعل العنيفة التي قد تعود عليه بالسّلب.

وعليه فإن الخطاب تتحكم فيه عوامل تداولية، خاصة في بعض المواقف التي تجبر المتكلم على توظيف عناصر إشارية معينة لخدمة مصلحته، فلو كان الخطاب يفيد المدح لاستعمل المرسل ضمير الجمع، كي يحسّ المخاطب بنوع من العظمة والفخر، غير أنه في هذا الموضع المتمثّل في الهجاء المسلط على الجماعة، لجأ إلى استعمال العنصر الإشاري الدال على المفرد، وهذا كي يظهر للمتلقي أن المخاطب افتراضي لا حقيقي.

كما أن هذا الخطاب لا يتجه إلى شخص بعينه؛ لأن الأداة الإشارية "أنت" غير محددة المرجع، وهذا ما يعطي الخطاب بعدا تداوليا أوسع، فهو موجه إلى كل من تنطبق

[1] - المصدر السابق، ص 19-20.

عليه سمات المرسل إليه العام، أي المفترض، ولذلك يستعملها المرسل إليه في الإعلانات التجارية[1].

وعليه فإن الإشاريات تتميز بعدم الثبات، والتذبذب في المفهوم، مما قد يؤدي إلى عدم الاتفاق في تحديد مفهومها من قبل المرسل إليه. فقد يلجأ المرسل إلى التلاعب بها، فيخرجها عن مدلولاتها الأصل، ويحولها في السياق الاجتماعي من وظيفتها الدلالية للدلالة على المرجع، إلى وظيفتها التداولية بانعكاسها مؤشرا على قصده[2].

وقد نجح المتكلم في استخدامه لهذا العنصر الإشاري بالرغم من انتهاجه لأسلوب الهجاء، حيث أعجب الجمع بما قاله، وقدموا له مالا وفيرا، وهذا ما يتبيّن في قول الحارث بن همام: "**أدْخَلَ كلٌ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ، فأفْعَمَ لهُ سَجْلاً منْ سَيْبِه، وقال: اصْرِفْ هَذا في نفقَتِكَ، أو فرّقْهُ على رُفْقَتِكَ**"[3].

كما ورد ضمير الجمع المخاطب "أنتم" في مقامات الحريري، وهو عنصر إشاري يحيل على مرجع حاضر وقت التلفظ، ومن نماذجه في المدونة قول أبي زيد مخاطبا جماعة لا يعرفهم في البقاع المقدسة: وقال من مشطور الرجز

وأنتـــُمُ مُنتجَـــــعُ الرّا جـــي ومـــرْمَى الطّلـبِ

لُهــاكـــُمُ منهَلّـــــةٌ ولا انْهِـــلالَ السُحُــبِ

وجـــارُكُــمْ في حـرَم ووَفــْرُكُــمْ في حــرَبِ

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 288-289.
[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 286-287.
[3] - مقامات الحريري، ص 21.

مــا لاذَ مـُرْتاعٌ بكُــمْ فخـــافَ نـــابَ النـُوَبِ

ولا استــــــدَرّ آمــلٌ حِــباءكُــمْ فما حُبــي [1]

استخدم المتكلم ضمير الجمع المخاطب "أنتم" لمخاطبة من حوله، محاولا استعطافهم لنيل مبتغاه الكامن في تقديم الزاد له، وقد استغل سياق الموقف كي يظفر بما يبتغي، فالمكان مقدّس "مكة المكرمة"، وقد كان له دور فعّال في تحقق الاستراتيجية التضامنية بين طرفي الخطاب، أما الحاضرون فهم حجاج، جاءوا إلى هذا المكان رغبة في التّعبد، فمن المعلوم أن الإنسان في هذه المواقف يسعى إلى تقديم كل ما طُلب منه، كما كان لمبدأ التأدب الذي اعتمد عليه المتكلم دورا هاما في تحقق هدفه، حيث وظّف العنصر الإشاري "أنتم" مرفوقا بعبارات المدح، ليجعل كلّ متلق للخطاب يحسّ أنّه المقصود بالمدح.

وتعدّ العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها، فالمرسل يراعيها في العملية التخاطبية لما لها من دور فعال في إنجاح التواصل، وتحقيق هدف المرسل إليه، إذ أنّه لا يمكن للأمر أن يقتصر على المتكلم بمعزل عن المخاطب وما يحيط بالعملية التواصلية، فهناك العلاقة بينهما والمعرفة المشتركة وغيرها من العناصر المؤثرة[2].

والملاحظ أنّه لا يمكن تحديد مراجع الضمائر وهي بمعزل عن سياقها، إلا إذا أعينت بالأسماء التي تحيل عليها؛ لأن الضمائر تدل دلالة وظيفية على مطلق غائب أو

[1] - المصدر السابق، ص 139.

[2] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 48.

حاضر، فهي لا تدل على مسمى كما تدل الأسماء، فإذا أريد لها أن تدل عليه فتنقلب من وظيفية إلى معجمية كان ذلك بواسطة المرجع، فدلالتها على الاسم لا تتأتى إلا بمعونة الاسم[1].

وقد استغل ابن أبي زيد هذا الموقف أثناء إنشاده لقصيدة شعرية، موجها خطابه للجماعة نفسها، فقال: من المجتث

وأنتُمُ خيْـــــرُ رهْـــطٍ — تُدعَـوْنَ عند الشّديـدهْ

أيدِيكــــــُمُ كــــلَّ يـومٍ — لَهـــا أيـــــادٍ جَديـــدَهْ

وراحُكُــــمْ واصِـــلاتٌ — شمْلَ الصِّلاتِ المُفيدَهْ[2]

الملاحظ أن الولد نهج منهج أبيه في الخطاب، فهو يخاطب الأشخاص نفسهم، الذين سبق وأن تحدث معهم أبو زيد، في المكان نفسه، وهو البقاع المقدسة، والزما ن نفسه، وهو موسم الحج، حيث وصفهم بأحسن الصفات، وما يحيل تلك الصفات على مراجعها هو الضمير المنفصل "أنتم"، و"واو الجماعة" المتصل بالفعل المضارع "تدعون"، وكاف الخطاب في لفظتي "أيديكم، وراحكم"، فقد تنوعت في هذا الملفوظ العناصر الإشارية الشخصية بين منفصلة ومتصلة، إلا أنّها تحيل على مرجع واحد.

والجدير بالذكر أن هذا الملفوظ لو أُبعد عن سياقه لن يتمكن القارئ من تحديد مرجعياته، سواء تعلق الأمر بالمتكلم أو المخاطب، لذلك فإن الإشاريات هي عناصر سياقية لا يمكن فك شفراتها إلا من خلال السياق؛ لأن هذا الأخير " بمثابة العنصر الفاعل في

[1] - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص 113.
[2] - مقامات الحريري، ص 141.

توضيح الكلام، بل في صحته والوصول به إلى درجة القبول في مبناه ومعناه، ومعنى ذلك أن عدم الاهتمام به وأخذه في الحسبان، قد يميل الكلام إلى مجرد ضوضاء تلقى في الهواء"[1].

وفي قول أبي زيد مخاطبا أهل البصرة: "**وأما أنتمْ فممّنْ لا يختلِفُ في خَصائِصِهِم اثْنانِ، ولا يُنكِرُها ذو شَنَآنٍ، دَهْماؤكُمْ أطْوَعُ رَعِيّةٍ لسُلْطانٍ، وأشكَرُهُمْ لإحْسانٍ، وزاهِدكُمْ أوْرَعُ الخليقَةِ، وأحسنُهُمْ طَريقَةً على الحَقيقَةِ، وعالِمُكُمْ علاّمَةُ كلّ زمانٍ، والحُجّةُ البالِغَةُ في كلّ أوانٍ**"[2].

تعددت العناصر الإشارية الشخصية بين ضمائر المخاطب، وضمائر الغائب في هذا الملفوظ، ولعل أبرزها هو ضمير المخاطب المنفصل "أنتم"، الذي يحيل على مرجع يكمن في أهل البصرة، والملاحظ أن المتكلم عمد استخدام هذا العنصر الإشاري، ليحقق الاستراتيجية التضامنية في خطابه، فهو الأنسب في هذا الموضع لبلوغ المراد، وتحقيق هدفه.

وقد لا يحتاج المتلقي إلى إعمال الفكر في تحديد مراجع العناصر الإشارية في بعض الملفوظات، خاصة إذا اقترنت هذه الأخيرة بالاسم مثل قول أبي زيد: " **أما أنتُمْ يا أهلَ البَصرَةِ فما منْكُمْ إلا العَلَمُ المعروفُ، ومنْ لهُ المعرفَةُ والمعروفُ**"[3].

[1] - كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 367-368.
[2] - مقامات الحريري، ص 551.
[3] - المصدر نفسه، ص 552.

ذكر المتكلم ضمير الخاطب "أنتم"، وأتبعه بالاسم الذي يحيل عليه، وهو "أهل البصرة"، وبذلك فإن المتلقي يكتفي بهذه الجملة لمعرفة ما تحيل عليه، دون العودة إلى سياق التلفظ.

وحري بالبيان أن ضمائر المخاطب لا يقف استعمالها على الإشارة إلى مرجع فقط، فقد تتجاوز ذلك، لتصبح مؤشرا على غرض تداولي، كأن يلجأ المتكلم إلى استخدام الضمير المفرد لمخاطبة الجمع، أو يستخدم ضمير الجمع في خطابه مع الفرد، وهو ما يعرف ب "أنت" التعاونية أو المتبادلة، وأنتم التعاونية أو المتبادلة، لذلك فإن الإشاريات تبين العلاقة الحميمية بين المتخاطبين، حيث يستعملها المرسل الذي تعرّف على المرسل إليه حديثا، كما يلجأ إليها في حديثه مع المرسل إليه المفترض، خصوصا في وسائل الإعلام التي لا تعرف هوية المرسل إليه بالضبط، وهذا ما يتبين في مخاطبة الطلبة المتفوقين في امتحان شهادة البكالوريا:

- أنتم فخر للوطن.

كما يستعمل المرسل الضمير "أنتم" في بعض الحالات لمخاطبة المرسل إليه المفرد إذا كان ذا مرتبة أعلى؛ لأنه يجسد الاحترام، ويستخدمه أيضا إذا لم تكن له معرفة مسبقة بالمرسل إليه؛ لأنه الأعلى رتبة في السياق التداولي، فهو يثبت الاحترام المتبادل بينهما، كما يبين استعداد المرسل للتقارب الخطابي مع المرسل إليه، لذلك فإن هدف هذه الأداة الإشارية هو تأسيس الخطاب على التضامن لا على معيار السلطة[1].

[1] - ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 290.

ج- ضمائر الغائب:

وردت ضمائر الغائب بجميع أصنافها في مقامات الحريري، لذلك سنقتصر على بعض نماذجها، منها قول القاضي الذي أُعجب بدهاء أبي زيد، رغم خداعه له: **"أمَا إنّهُ لوْ حضَرَ لكُفيَ الحذرَ، ثمّ لأوْلَيْتُهُ ما هو به أوْلى، ولأرَيتُهُ أنّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأولى"**[1].

وظّف المتكلم العنصر الإشاري الدال على المفرد الغائب بكل أنواعه:

- الضمير المستتر في لفظة "حضر".
- الضمير المتصل في الألفاظ: "إنه، لأوليته، به، لأريته، له".
- الضمير المنفصل: "هو".

إن كل هذه الضمائر تحيل على مرجع واحد، وهو أبو زيد السروجي، فقد أدت وظيفة واحدة وهي الإحالة على المرجع نفسه، وعليه فإن "الضمير والمضمر بمعنى واحد، وقد يعبر عنهما في بعض المراجع القديمة بالكناية والمكنى؛ لأنه يكنى به، أي يرمز به عن الظاهر اختصارا؛ لأن اللبس مأمون –غالبا– مع الضمير"[2].

وحري بالبيان أن استعمال ضمائر الغائب تتدخل فيه أبعاد تداولية، فالمتكلم لم يذكر المرجع المقصود باسمه، بل أشار إليه بتلك العناصر الإشارية التي سبق ذكرها، ولعل هذا راجع إلى سلطته ومكانته الاجتماعية، فهو القاضي الذي في يده الحكم، وعليه فإن المرسل يختار الإستراتيجية التخاطبية التي تناسب مكانته الاجتماعية، كما يراعي موقع المخاطَب، والعلاقة التي تربط بينهما.

[1] - مقامات الحريري، ص 97.
[2] - عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط3، الجزء الأول، ص 217.

ولعل أبرز تلك العوامل المؤثرة في هذا الخطاب هو مكان التلفظ المتمثل في المحكمة، فالقاضي يملك السلطة المطلقة فيه، لذلك يتخيّر لفظه، ويتعمّد استخدام أساليب معينة دون غيرها، كي يحافظ على مكانته، ويبقي على هيبته، وقد لجأ إلى توظيف هذا العنصر الإشاري لأن هناك بون شاسع بينه وبين المتهم، فلو صرّح باسم متّهمه لجعله قريبا منه، مما يفقده هيبته. وعليه فإن إنتاج الخطاب تتحكم فيه كفاءة المرسل التداولية، وعوامل خارجية كعلاقة المرسل بالمرسل إليه، والمكانة الاجتماعية لطرفي العملية التخاطبية.

وإذا كان ضمير الغائب يحيل على مرجع غير حاضر وقت التلفظ، فإنه قد يستخدم في غير ما وضع له في الأصل، وهو ما يتبين في قول أبي زيد: من الرجز

حُيِيتُمُ يا أهلَ هذا المنــــــــــزِلِ وعِشتُمُ في خفضِ عيشٍ خضلِ

ما عندكُمْ لابنِ سَبيلٍ مُرمِـــــــل نِضْوِ سُرًى خابـــــطِ ليْلٍ ألْيـَلِ

جَوِي الحَشى على الطّوى مُشتَمِلِ ما ذاقَ مذْ يومانِ طعمَ مأكـــلِ

ولا لـهُ في أرضِكُمْ منْ مَوْئِـــــــلِ وقد دَجا جُنْحُ الظّلامِ المُسبـــلِ

وهْـوَ مـنَ الحـــيَرَةِ في تمـلْمـــُلِ فهـلْ بهَذا الرَّبعِ عذبُ المنهَلِ [1]

إن المتكلم يطلب من صاحب الدار أن يحنّ عليه بالمأكل والمأوى، وقد بين له تلك المعاناة التي عاناها، حيث أصبح بلا زاد ولا مأوى.

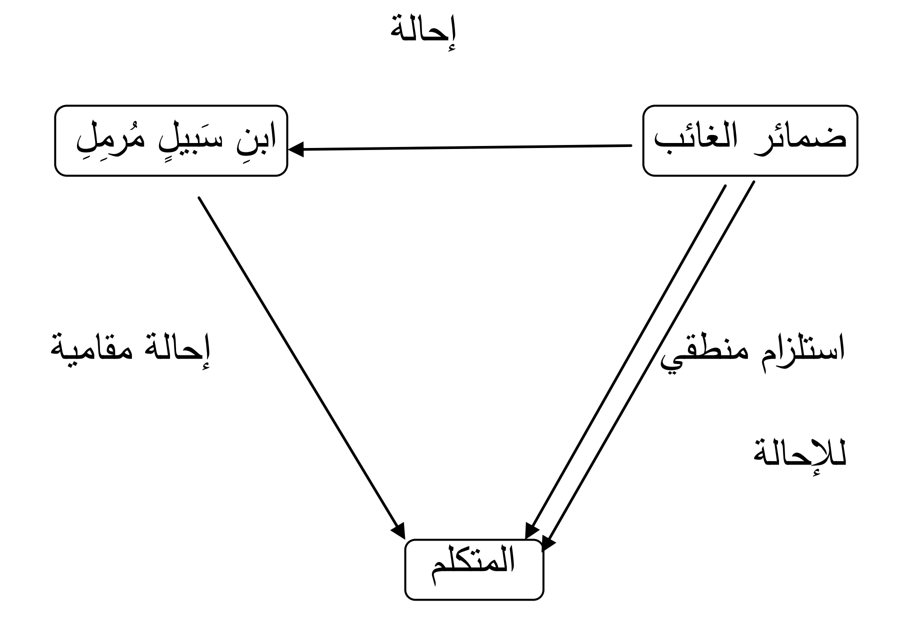
[1] - مقامات الحريري، ص 51.

وتضم هذه الأبيات جملة من ضمائر الغائب منها:

- الضمير المستتر في الفعل "ذاق".
- والضمير المتصل ب"له".
- والضمير المنفصل "هو".

وهي عناصر إشارية تحيل على مرجع واحد يكمن في "ابنِ سَبيلٍ مُرمِلِ "، غير أن هذا الأخير يعود على المتكلم، نستخلص من هذا أن ضمائر الغائب في هذه الأبيات الشعرية تحيل على المتكلم.

ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي:



وعليه فإن استخدام هذه الإشاريات تتحكم فيه كفاءة المرسل التداولية، لا اللغوية فقط، حيث تدخلت فيه عوامل سياقية مختلفة أهمها:

– حالة المرسل، إن المتكلم في حالة يرثى لها؛ لأنه يطلب الأكل بعدما أضرّه الجوع، لذلك لم يصرح باسمه، وعدّل عن ذلك بذكر ابن السبيل، كي يؤثر في المرسل إليه، باعتباره

صاحب البيت، وفي يده تنفيذ الفعل، فلو قال المتكلم: ما عندكم لي، قد يفشل فعله الكلامي؛ لأنه يتضمن استراتيجية توجيهية، تجعل للمرسل سلطة في الخطاب، وعلى المتلقي تنفيذ الأمر، وهذا ما يفتقده المرسل، إذ لا توجد سلطة لديه ترغم متلقيه على تنفيذ الفعل.

- نلمس في هذا الخطاب نوعا من الأنفة لدى المرسل، فالمعروف أن السؤال مذلة، لذلك لجأ إلى استخدام مرجعية تحيل عليه بطريقة غير مباشرة؛ لأن الإنسان في هذه المواقف يخجل من ذكر اسمه، فيلجأ إلى توظيف الاستراتيجية التلميحية التي تحيل عليه، وتجعل المخاطب يفهم قصده.

- التأدب في الحديث، إذ تظهر كفاءة المرسل التداولية في التأدب، الذي يعدّ من أهم الأسباب في استخدام الاستراتيجية التلميحية.

وقد يدرج المتكلم نفسه في زمرة، فيحيل عليه ومن معه بضمير الجمع الغائب، مثل قول عجوز تخاطب كبار شعراء الزوراء: من السريع

يا قـومُ إني منْ أُناسٍ غَنَـوا دهراً وجفنُ الدهرِ عنهُمْ غَضيـضْ

فخارُهُمْ ليـسَ لهُ دافِـعٌ وصيتُهُمْ بينَ الوَرى مُستَفيـضْ

كانوا إذا ما نُجعَـةٌ أعوزَتْ في السّنةِ الشّهباء روْضاً أرِيـضْ

تُشَبّ للسّـارينَ نيرانُـهُمْ ويُطعِمون الضّيفَ لحْماً غَريـضْ

ما باتَ جارٌ لهُمُ ساغِبـاً ولا لرَوْعٍ قال حالَ الجَريـضْ

فغيّضَتْ منهُمْ صُروفُ الرّدى بِحارَ جودٍ لمْ نخَلْها تَغيـضْ

وأُودِعَتْ منهُمْ بُطونُ الثّــرى   أُسْدَ التّحامي وأُساةَ المَريــــضْ[1]

نلاحظ أن المرأة نسبت نفسها إلى قوم غنوا دهراً، وجاءت بضمير جمع الغائب، وهو عنصر إشاري يحيل على المتكلم وقومه، وهذا في قولها: "فخارهم، صيتهم، كانوا، نيرانهم، يطمعون، لهم، منهم"، فقد اقترن الضمير بالمبتدأ في البيت الثاني، وجاء اسما ل"كان" في البيت الثالث، ومضافا إليه في البيت الرابع، وأخذ وظيفة الاسم المجرور في البيتين الخامس والسادس، وعليه فإن لهذا الضمير وظيفة مرجعية، ووظائف نحوية مختلفة.

وقد يُستعمل ضمير الغائب للإحالة على المخاطب، وهذا ما يتبيّن في قول ابن أبي زيد مخاطبا جماعة في مكة المكرمة أثناء أداء فريضة الحج: من المجتث

يا ســـادَةً في المَعـالي   لهُــمْ مبانٍ مَشيـدَهْ

ومَنْ إذا نــابَ خطْـــبٌ   قامــوا بدَفْعِ المكيدَهْ

ومــن يهـــونُ عليــهِمْ   بذْلُ الكُنــوزِ العَتيدَهْ

أريدُ منـــكُمْ شِــــواءً   وجرْدَقاً وعصيــدَهْ[2]

يحاول المتكلم استعطاف المخاطبين كي ينال منهم الزاد والمأكل، وقد وظّف العنصر الإشاري الاجتماعي "سادَةً في المَعالي" الذي يحيل عليهم، ثم أتبعه بضمائر الغائب في قوله: "لهم، قاموا، عليهم"، وهي عناصر إشارية تحيل على المرجع السابق.

[1] - مقامات الحريري، ص 131.
[2] - المصدر نفسه، ص 140.

وعليه فإنه يمكن استعمال ضمائر الغائب للإحالة على عناصر إشارية أخرى، وهي بدورها تحيل على المراجع المقصودة، كما أنها قد تُستعمل للإحالة على المخاطب.

ولعل السبب في استخدام المتكلم هذه الاستراتيجية الإحالية هو محاولة الارتقاء بالمخاطبين إلى أعلى مراتب السمو، حيث جعلهم سادة في أعلى الدرجات، وهو مركز اجتماعي لا يحظى به إلا القلة النادرة من أصحاب الحظوظ.

ثم عدّل عن هذه الإحالة في البيت الأخير بضمير المخاطب، وذلك في قوله: "منكم"، الذي يحيل إلى المرجع المقصود مباشرة، وهذا بعدما أحسّ أنه نجح في استراتيجيته التضامنية السابقة.

وفي قول القاضي مخاطبا امرأة تشكو من زوجها الحاضر معها : **"أمّا أنتِ فلوْ جادَلتِ الخنْساء لانثَنَتْ عنكِ خرْساء، وأما هوَ فإنْ كانَ صدَقَ في زعمِهِ، ودعْوى عُدْمِهِ فلهُ في همّ قَبْقَبِهِ ما يشغلُهُ عنْ ذبْذَبِهِ"**[1].

نلاحظ أن المتكلم استخدم ضمير الغائب "هو" للإحالة على مرجع حاضر وقت التلفظ، فالقاضي يقصد الرجل الذي تشكو منه زوجته، وعليه فإن ضمائر الغيبة قد تكون عناصر إشارية لمرجعيات حاضرة وقت التلفظ، ولكن يشترط في تلك المرجعيات أن لا يكون الخطاب موجّها إليها.

2- الإشاريات المكانية:

---

[1] - المصدر السابق، ص 489.

تعد الإشاريات المكانية من بين العناصر اللغوية التي يقتضي الإلمام بمعناها معرفة سياق التلفظ؛ لأن مرجعها غير ثابت ولا محدد، ويكمن دورها في الإحالة على مرجع مكاني، فهي "عناصر إشارية إلى أماكن، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلّم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع"[1].

وتختص الإشاريات المكانية "بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتين رئيستين للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى"[2].

وتساعد معرفة مكان التلفظ على تأويل الخطاب تأويلا صحيحا، وفهم المعنى، وبلوغ قصد المتكلم، وفي هذا يقول عبد السلام المسدي: "ليس الكلام متعاملا فحسب مع عنصر المكان وإنما هو حبيس في سياجه" [3]، فلا يكفي اكتمال الخطاب لغة لفهم ومعرفة مراد المتكلم، إذ لابد من معرفة المرجع المكاني لما له من أهمية في تحديد المواقع، ففي قولنا:

- تبعد المستشفى بمائة متر.

لا يستطيع المرسل إليه معرفة موقع المستشفى إلا إذا كان عالما بموضع التلفظ.

ويظهر دور الإشاريات المكانية في خطاب مقامات الحريري حتى في عناوينها، فلا نكاد نجد عنوانا إلا ويحيل على مرجع مكاني، مما يساعد على تأويل الأحداث وفهم القصد،

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 84.

[3] - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986، ص 248.

ومن بين عناوين المقامات: "المقامة الصنعانية، المقامة الحلوانية، المقامة الدمياطية، المقامة الكوفية، المقامة الإسكندرية، المقامة الساوية، المقامة الدمشقية، المقامة البغدادية...المقامة البصرية".

تحيل هذه العناوين على مرجع خارجي يكمن في مكان وقوع الأحداث، وهذا إن دلّ فهو يدلّ على أهمية المكان في الخطاب.

وتساعد هذه المرجعيات في فهم النص وإعطائها التأويل المقصود، فهي بمثابة مفاتيح شفرات النصوص؛ لأن لكل منطقة خصائصها التي تميزها عن غيرها، كما أن الخطاب يتغير من منطقة إلى أخرى، فالقارئ عندما يتعرف على مكان التلفظ يكتسب معرفة سياقية خاصة بذلك المكان، وتصبح هذه المعرفة عنصرا هاما يساعده على فهم الخطاب، وتأويل الأحداث تأويلا صحيحا.

ولا يمكن الوصول إلى المرجع الحقيقي لبعض الإشاريات إلا بمعرفة مكان وقوع الأحداث، وهذا ما يتبين في قول الحارث بن همام: "**حضَرْتُ ديوانَ النّظرِ بالمَراغَةِ، وقدْ جَرى بهِ ذكْرُ البَلاغَةِ، فأجمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسانِ اليَراعَةِ، وأرْبابِ البَراعةِ، على أنّهُ لمْ يبْقَ مَنْ يُنقّحُ الإنْشاءَ، ويتصرّفُ فيهِ كيفَ شاءَ**"[1].

ذكر المتكلم مكان التلفظ، المتمثل في ديوان النظر وهو "ديوان المكاتبات والمراجعات"[2]، الذي شكل عنصرا إشاريا يحيل على مكان التلفظ، إلا أن القارئ لا يستطيع تحديد مرجعه تحديدا دقيقا، فقد نجد في كل مدينة ديوان، وعليه فهو يتساءل هل هذا الديوا ن في البصرة أم

[1] - مقامات الحريري، ص 57.
[2] - المصدر نفسه، ص 57.

في الكوفة أم في الحجاز ... لذلك تعمّد المتكلم إلى ذكر المدينة التي ضمت هذا الديوان، ألا وهي "المراغة" وهي بلدة في أذربيجان، هذا ما جعل القارئ يحدد مرجع الملفوظ.

وقد تتضافر الإشاريات المكانية فيما بينها لتحديد المرجع المكاني المقصود، بحيث نجد في القول الواحد أكثر من عنصر، وهو ما يتبين في الحارث بن همام: "**فبَينَما أنا عِندَ حاكِمِ الإسكنْدَريّةِ، في عشيّةٍ عريّةٍ، وقد أحضَرَ مالَ الصّدَقاتِ، ليَفُضّهُ على ذوي الفاقاتِ، إذْ دخَل شيخٌ عِفْرِيَةٌ، تعتُلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ**"[1].

يضم هذا الملفوظ عنصرين إشاريين، يحيلان على مكان وقوع الأحداث؛ الأول يكمن كلمة "الاسكندرية" التي وردت مضافا إليه، أما الثاني فيظهر في قوله: "عند" الذي يحيل على مكان وقوع الأحداث.

غير أن القارئ لا يكتفي بمعرفة الاسم الإشاري لتحديد مرجعيته المكانية، إذ لابد من الاستعانة بالسياق اللغوي والمقامي لمعرفة ما إذا كان الملفوظ يحيل على المكان أم لا، فلو قال المتكلم: "أعرف حاكم الإسكندرية" لما أحال الملفوظ على مكان الأحداث رغم ورود كلمة الإسكندرية في كلا المثالين مضافا إليه، وعليه فإن للسياق اللغوي دورا فعالا في تأويل الخطاب وتحديد مرجع الملفوظ.

وقد لا يذكر المتكلم مكان وقوع الأحداث إلا أن القار ئ يعرف ذلك من خلال السياق، وهذا ما يتبين في قول الحارث: "**جُلْنا في مُخاصَمَةٍ، اتّصَلَتْ بمُلاكَمةٍ، وأفْضَتْ إلى**

[1] - المصدر السابق، ص 88.

مُحاكمَةٍ، فلمّا أوضَحْنا للقاضي الصورَةَ، وتلَوْنا علَيْهِ السّورَةَ، قال: ألا إنّ منْ أنذرَ فقدْ أعْذر"[1].

إن المتكلم لم يصرح بمكان وقوع الأحداث؛ لأنه عالم بأن القارئ يستتج ذلك من خلال النص، فقد أشار إليه ببعض الكلمات التي بيّنته، وذلك بذكره كلمتي: "محاكمة" و"القاضي"، فالمحاكمة لا تتم إلا في المحكمة، والقاضي لا يصدر حكمه إلا هناك، وبذلك أغنت هذه الكلمات من ذكر مكان التلفظ.

وتعدّ ظروف المكان من الآليات اللغوية التي اعتمد عليها الكاتب في تحديد المرجعيات المكانية للملفوظ، وهذا ما يتبيّن في قول الحارث: " **تراءى لي ذو أطْمارٍ باليَةٍ، فوْقَ صخْرَةٍ عالِيَةٍ، وقدْ عصيَتْ بهِ عُصَبٌ، لا يُحْصى عديدُهُمْ، ولا يُنادَى وَليدُهُمْ"[2].**

استخدم المتكلم العنصر الإشاري "فوق" للإحالة على المرجع المكاني الذي تم فيه التلفظ، غير أن هذه الكلمة لا تحيل دائما عليه، فقد تُستخدم لغير ما وضعت له، وهذا ما يظهر في قول الغلام الذي باعه سيده:

فما أنا دونَ ذاكَ الطِّرْفِ لكِنْ طِباعُكَ فوقَها تلْكَ الطّباعُ[3]

إن كلمة "فوق" في هذا الملفوظ لا تحيل على المرجع المكاني، بل استخدمت استخداما مجازيا حيث جسّدت الطباع؛ فحوّلتها من شيء معنوي إلى مادي محسوس، له موضع مكاني.

[1] - المصدر السابق، ص 368.
[2] - المصدر نفسه، ص 549.
[3] - المصدر نفسه، ص 365.

وهناك بعض الإشاريات المكانية التي لا يمكن معرفة مرجعها إلا بمعرفة مكان التلفظ، ففي قول شيخ غريب في "المقامة القَهقَريّة":

"قدْ أجّلتُكُمْ أجَلَ العِدّةِ، وأرخَيت لكُمْ طِوَلَ المُدّةِ، ثم هاهُنا مجمَعُ الشّمْلِ وموقِفُ الفصْلِ، فإنْ سمحَتْ خواطِرُكُمْ مدَحْنا، وإنْ صلدَتْ زِنادُكُمْ قدَحْنا"[1].

نلاحظ أن المتكلم يخاطب جمعا، بين لهم مكان مجمع الشمل، ودلّ على ذلك بقوله "هنا"، وهو ظرف مكان يحيل على مكان التخاطب.

والملاحظ أنّه يستحيل على المتلقي معرفة هذا المرجع إلا إذا كان حاضرا وقت التلفظ، أو إذا علم بموقع المتكلم أثناء التّكلّم، وعليه فإنّه لا يمكن أن يفسر مستعملو اللغة كلمات مثل: هذا وذاك وهنا وهناك... إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، وبذلك فهي تعتمد على السياق المادي المباشر[2].

وقد تستخدم الإشاريات المكانية للإحالة على مرجع عام؛ أي أنّها لا تدل على مكان محدد، وهو ما يظهر في قول الشيخ:

كأني بكَ تنحطّ إلى اللحْدِ وتنْغطّ وقد أسلمَك الرّهــــطْ

إلى أضيَقَ منْ ســـمّ

هُناك الجسمُ ممدودْ ليستأكِلَهُ الدّودْ إلى أن ينخَرَ العودْ

ويُمسي العظمُ قد رمّ[3]

---

[1] - مقامات الحريري، ص 169-170.

[2] - ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21.

[3] - مقامات الحريري، ص 111.

يتضمن هذا القول كلمتين تحيلان على مرجع واحد وهو القبر، وذلك في قوله: "اللحد، هناك"، غير أن المتكلم لا يقصد قبرا محددا، بل أراد أي قبر من القبور؛ لأنه في مقام لا يسمح له بتحديد المرجع الدقيق لهذا العنصر الإشاري، إذ لا يمكنه أن يتنبأ بموضع قبور الأحياء، غير أنه يعلم أن الإنسان مهما كانت صفته يوضع في النهاية في القبر.

وتساعد الإشاريات المكانية في تحديد نوعية الشخوص الحاضرة أثناء العملية التخاطبية، وهو ما يظهر في قول الحارث بن همام: " **فلمّا أُبْتُ منْ غُربَتي، إلى منْبِتِ شُعْبَتي، حضَرْتُ دارَ كُتُبِها التي هيَ مُنتَدى المتأدّبينَ، ومُلتَقَى القاطِنينَ منهُمْ والمُتغرّبينَ، فدخَلَ ذو لِحْيَةٍ كثّةٍ وهيئَةٍ رثّةٍ، فسلّمَ على الجُلاّسِ، وجلَسَ في أُخرَياتِ الناسِ**"[1].

بيّن المتكلم مكان الأحداث، المتمثّل في دار الكتب، المتواجدة في بلدته، وقد ذكر اجتماع الناس فيه دون أن يحدد هويّتهم، غير أن هذا المكان حدد نوعية الشخوص الحاضرة، وبيّن أنّهم من نخبة المجتمع؛ لأن دار الكتب أو المكتبة لا يقصدها إلا أصحاب العقول النيرة، والذين لهم باع في العلم والأدب، لذلك فإن ذكر المكان يعطي للقارئ صورة عامة عن الموقف.

كما يساعد العنصر الإشاري المكاني على إعطاء صورة مسبقة لنوعية الخطاب الذي سيجري في هذا الموضع، فالخطاب الذي سينجز في دار الكتب يدور غالبا حول العلم والأدب، أو ذكر للألغاز، أو حديث عن المشاهير من الأدباء والعلماء.

[1] - المصدر السابق، ص 27.

وقد تحمل الإشاريات المكانية دلالات عدة، وهذا ما يتبين في هذا القول: " **رَوى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قالَ: حضَرْتُ ديوانَ النّظرِ بالمَراغَةِ، وقدْ جَرى بهِ ذكْرُ البَلاغَةِ، فأجمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسانِ اليَراعَةِ، وأرْبابِ البَراعةِ، على أنّهُ لمْ يبْقَ مَنْ يُنقّحُ الإنْشاءَ، ويتصرّفُ فيهِ كيفَ شاءَ، ولا خلَفَ بعْدَ السّلَفِ مَنْ يبتَدِعُ طريقةً غَرّاء، أو يفتَرِعُ رسالةً عذْراءَ، وأنّ المُفلِقَ من كُتّابِ هذا الأوانِ، المُتمكّنَ من أزِمّةِ البيَانِ، كالعِيالِ على الأوائِلِ ولو ملَكَ فَصاحَةَ سحْبانِ وائِل، وكان بالمجْلِسِ كهْلٌ جالِسٌ في الحاشيةِ، عندَ مَواقِفِ الحاشِيَةِ."[1].**

يحتوي هذا الملفوظ على عنصر إشاري مكاني، يتمثّل في "حاشية المجلس"، وهو مكان جلوس الخدم والعبيد، حيث لا يجلس فيه إلا من هم أدنى مرتبة، لذلك بيّن مكانة الكهل الغريب الحاضر في هذا المجلس، فهو ليس في مستوى الحاضرين من الناحية الاجتماعية والمادية والثقافية. هذا ما جعل القارئ ينتظر منه أن يطلب صدقة أو ينتفع بما يُقال، إلا أن هذا الكهل سرعان ما خيّب أفق انتظار القارئ بعدما قام بإعجاز من معه من أرباب البراعة، ومهرة الكتاب، وأدهشهم بعلمه. وعليه فإن المتكلم استعمل هذا العنصر الإشاري للتأثير في المتلقي وخرق أفق انتظاره.

[1] - المصدر السابق، ص 57.

3- الإشاريات الزمانية:

تعدّ الإشاريات الزمانية من أبرز العناصر اللغوية التي تساهم في معرفة قصد المتكلم، وفهم الخطاب، وهي " كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم"[1]، إذ لابد من معرفة زمان التكلم لتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، و فهم المعنى وتحديد قصد المرسل. لذلك فإن لزمن التلفظ دور بالغ في العملية التخاطبية، وهذا ما يظهر في الملفوظ الآتي:

"وهلْ للقُدَماء إذا أنعَمَ النّظَرَ مَنْ حضَرَ غيرُ المَعاني المطْروقَةِ المَوارِدِ المعْقولَةِ الشّوارِدِ المأثورَةِ عنهُمْ لتَقادُمِ المَوالِدِ لا لتقدُّمِ الصّادِرِ على الوارِدِ؟ وإني لأعْرِفُ الآنَ مَنْ إذا أنْشا وشّى، وإذا عبّرَ حبّرَ، وإنْ أسهَبَ أذْهَبَ، وإذا أوْجَزَ أعْجَزَ، وإنْ بَدَهَ شدَهَ"[2].

فإذا لم يعرف المرسل إليه لحظة التلفظ فإنه لا يستطيع معرفة الزمن الذي عاش فيه هؤلاء المبدعين؛ لأن هذا الملفوظ لم يقدّم مرجعا زمانيا يحدد الزمن المقصود تحديدا دقيقا، لذلك يجب معرفة لحظة التلفظ كي يتسنى للمرسل إليه الفهم الدقيق.

كما أن الإحالة على الزمان قد تستغرق المدة الزمانية كلّها؛ كأن يُقال "اليوم الأربعاء"، وقد تستغرق مدة محددة من الزمان مثل: "ألقيت البحث يوم الأحد"، فإلقاء البحث لا يستغرق يوم الأحد بأكمله، بل يقع في جزء منه[3].

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19.
[2] - مقامات الحريري، ص 59.
[3] - ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 20.

وقد يتّسع مدى بعض العناصر الإشارية، فيتعدى الزمان المذكور إلى زمان أوسع، فكلمة "الآن" في قول أبي زيد: **وإني لأعْرِفُ الآنَ مَنْ إذا أنْشا وشّى، وإذا عبّرَ حبّرَ، وإنْ أسهَبَ أذْهَبَ، وإذا أوْجَزَ أعْجَزَ، وإنْ بَدَهَ شدَهَ"** [1]، تشمل عصرا كاملا، ولا تعني لحظة التلفظ؛ لأن السياق يفرض ذلك.

وعليه فإن الإشاريات الزمانية هي عناصر سياقية، يساعد على تحديد مراجعها سياق التلفظ، والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب، فالمتكلم يتلفظ بالعنصر الإشاري الزماني وهو عالم بأن المتلقي يستطيع تأويله التأويل المناسب.

ويظهر دور الإشاريات الزمانية في قول الحارث بن همام: "**فلبِثْنا نرقُبُهُ رِقبَةَ الأعْيادِ، ونستَطلِعُهُ بالطّلائِعِ والرّوّادِ، إلى أنْ هَرِمَ النّهارُ، وكادَ جُرُفُ اليومِ ينْهارُ**"[2].

يضمّ هذا الملفوظ عنصرا إشاريا زمانيا، وذلك في قول المتكلم: "إلى أنْ هَرِمَ النّهار، وكادَ جُرُفُ اليومِ ينْهارُ"، فهو يحيل على مرجع زماني يكمن في قرب نهاية النهار، ودخول العشيّ.

وكي يتبيّن دور هذا المرجع لابد من معرفة مجريات الأحداث في هذه المقامة، فقد جمع الحارث مالا وفيرا لأبي زيد، وبعدها طلب منه هذا الأخير أن يأذن له بالخروج للاستحمام، فأذن له الحارث شريطة أن يعود بسرعة، وبقي ينتظره يوما كاملا، ولم يعد إليه، وقد جاء العنصر الإشاري الزماني ليبين أن الرجل لن يعود إليه، وأنه خدعه؛ لأن الفعل

[1] - مقامات الحريري، ص 59.
[2] - المصدر نفسه، ص 45.46.

المنجز لا يحتاج إلى هذه المدة الزمانية، وعليه فإن الإشاريات الزمانية تحدد نوع الفعل الكلامي المنجز، ولو لم يصرّح به المتكلم.

وفي قول الحارث: " **فاستَهْوانا السّمَرُ إلى أنْ غرَبَ القمَرُ، وغلَبَ السّهَرُ، فلمّا روّقَ الليْلُ البَهيمُ ولمْ يبْقَ إلا التّهويمُ سمِعْنا منَ البابِ نبْأةَ مُستَنْبِحٍ، ثمّ تلَتْها صكّةُ مُستفْتِحٍ. فقُلنا: منِ المُلِمّ في اللّيلِ المُدْلَهِمّ؟**"[1]

يتضمن هذا الملفوظ عنصرا إشاريا زمانيا يكمن في "الليل البهيم"، وهو ما ساعد على تأويل أحداث الخطاب، وفهم القصد، فالمعلوم أن الطارق سواء كان ضيفا أو عابر سبيل، أو... يأتي في النهار، أما من أتى في الليل البهيم فلا يكون إلا مضطرا. وبذلك فإن هذا العنصر الإشاري قام بتحديد نوعية الشخص الطارق، وبيّن أن مجريات الأحداث ستتغير.

والملاحظ في خطاب مقامات الحريري أن أغلب الإشاريات الزمانية تعتمد اعتمادا تاما على سياق الموقف، إذا لا يمكن فك إبهامها وإحالتها على مراجعها الحقيقية إلا إذا علمنا زمن التلفظ بها، ففي قول كهل غريب في "المقامة المراغية": "**وهلْ للقُدَماء إذا أنعَمَ النّظَرَ مَنْ حضَرَ غيرُ المَعاني المطْروقَةِ، المَوارِدِ المعْقولَةِ، الشّوارِدِ المأثورَةِ عنهُمْ لتَقادُمِ المَوالِدِ لا لتقدُّمِ الصّادِرِ على الوارِدِ؟ وإني لأعْرِفُ الآنَ مَنْ إذا أنْشا وشّى، وإذا عبّرَ حبّرَ، وإنْ أسهَبَ أذْهَبَ، وإذا أوْجَزَ أعْجَزَ، وإنْ بَدَهَ شدَهَ**"[2].

[1] - المصدر السابق ، ص 47-48.

[2] - المصدر نفسه، ص 59.

أراد المتكلم أن يثبت أنّ في زمانه رجالا أبدعوا وأحسنوا التعبير، وكانت معانيهم مثل الذهب، وأعجزوا في الاختصار، ويجيبون على البديهة. لكن من هم هؤلاء؟ وفي أي زمن عاشوا؟

يجيب عن هذا السؤال سياق الموقف، إذ لابد من معرفة زمن التلفظ لإحالة العنصر الإشاري الزماني إلى مرجعه الحقيقي؛ لأن هذا العنصر وهو كلمة "الآن" التي تحيل على لحظة التلفظ، لا يمكن تحديد مرجعها الحقيقي إلا بمعرفة سياق الموقف. وعليه فإن عدم تحديد المرجعية الدقيقة للإشاريات الزمانية يلفّ الملفوظ كاملا باللبس، هذا ما يعطي للإشاريات الزمانية الدور الفعّال في عمليات التخاطب.

كما أن الإشاريات الزمانية لا تؤخذ بحرفيتها، فكلمة "الآن" تعني لحظة التلفظ، إلا أنها استخدمت في هذا الموضع للدلالة على عصر المتكلم، فقد اتسع مدى هذا العنصر الإشاري، وتعدى الزمان المذكور ليحيل على عصر بأكمله، وبذلك فإن تحديد مرجعها يحتاج إلى تضافر الأبعاد اللغوية والسياقية.

وقد تستخدم الإشاريات الزمانية في غير موضعا، فتصبح مزدوجة الوظيفة، بحيث تحيل على مرجعها الزماني، وأشياء أخرى حسب حاجة المتكلم إليها، ففي قول أبي زيد مخاطبا الحارث بن همام: من مجزوء الرمل

يا أخـــي الحامِــلَ ضَيـْمي دونَ إخـْواني وقــوْمي

إنْ يكـــُنْ ســـاءكَ أمْسـي فلقـــدْ سرّكَ يوْمـــــــي

فاغْتفِـــرْ ذاكَ لِـــــهذا واطّرِحْ شكـري ولوْمي[1]

تتضمن هذه الأبيات الشعرية عنصرين إشاريين زمانين وذلك في قوله: "أمسي، يومي"، حيث اقترن كل عنصر بضمير المتكلم المتصل، هذا ما جعله يحمل دلالات شتى، إذ لم يقتصر على الإحالة على المرجع الزماني فقط، بل تعدى ذلك إلى دلالات متعددة؛ فكلمة "أمسي" في هذا الخطاب تعني كل الأعمال التي قام بها أبو زيد في الماضي، وعادت بالضرر على الحارث، أما كلمة "يومي" فأراد من خلالها المتكلم تبليغ رسالة للمخاطب مفادها أنّه ينفعه في الحاضر.

كما أنّه لا يقصد بكلمة "أمس" معناها الحرفي أي اليوم الذي ولى، وكذلك كلمة "يوم" لا تعني المدة الزمنية المقدرة بأربعة وعشرين ساعة، وإنما أراد بالكلمة الأولى الماضي الذي عاشه المتكلم، أما الثانية فتعني الحاضر، وعليه فإن الإشاريات الزمانية قد تطول وقد تقصر، وهذا حسب السياق الذي وردت فيه.

4- الإشاريات الاجتماعية:

الإشاريات الاجتماعية هي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين، وتستعمل في العلاقات الرسمية كصيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنا، واستخدام الضمير "أنتم" للمفرد المخاطب، و"نحن" للمفرد المتكلم، وتشمل أيضا الألقاب مثل

[1] - مقامات الحريري، ص 279.

فخامة الرئيس وفضيلة الشيخ، والسيد والسيدة، الآنسة، وحضرتك، وسعادتك... كما تستعمل في التعبير على الألفة والمودة كالتحيات مثل: صباح الخير...[1].

والملاحظ أن أكثر الإشاريات الاجتماعية استخداما في مقامات الحريري كلمة "شيخ"، ولعل هذا يعود إلى طبيعة عصر المقامات، حيث إن هذا العنصر الإشاري يعبر عن الوقار والكبر والعلم، فهو يطلق على الكبير وعلى العالم والمتدين، كما يعبر عن الاحترام والمحبة بين طرفي العملية التواصلية، فهو يجسد الاستراتيجية التضامنية في الخطاب.

ومن نماذجها في المدونه، قول الحارث بن همام:

" فلمّا رأيتُ الخُطبَةَ نُخبةً بلا سَقَطٍ وعَروساً بغيرِ نُقَطٍ، دَعاني الإعجابُ بنمَطِها العَجيبِ إلى استِجْلاء وجْهِ الخَطيبِ، فأخَذْتُ أتوَسّمهُ جِدّاً، وأقلّبُ الطّرْفَ فيهِ مُجِدّاً إلى أنْ وضحَ لي بصِدْقِ العلاماتِ، أنه شيخُنا صاحِبُ المَقاماتِ"[2].

فقد استخدم المتكلم العنصر الإشاري الاجتماعي المقترن بضمير المتكلم في قوله: "شيخنا" للإحالة على مرجع يكمن في أبي زيد السروجي، إذ أنّه لم يصرح به مباشرة، بل لمّح إليه بهذا العنصر الإشاري، وهذا لعدة عوامل منها:

- وظيفة المشار إليه: فهو إمام المسجد الذي يحظى بالاحترام من طرف جميع أفراد المجتمع.
- مكان التخاطب، المتمثل في المسجد الذي تتجسد فيه كل مظاهر الاحترام والتقدير.

[1] - ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 25- 26.
[2] - مقامات الحريري، ص 290.

نستخلص من هذا أن هناك مجموعة من العوامل السياقية التي تتحكم في استخدام الإشاريات الاجتماعية منها: سلطة المرسل إليه، ومكانته العلمية، كذلك علاقة المرسل بالمرسل إليه، ومكان التخاطب، والمنفعة التي تخص المتكلم، والفارق في السن، ولهذا الأخير دور فعّال في استخدام الإشاريات الاجتماعية، فلا يمكن للصغير أن ينادي الأكبر منه سنا باسمه خاصة إذا كان هناك فارق كبير في السن.

وفي قول أبي زيد مخاطبا القاضي في "المقامة الإسكندرية": من المنسرح

فوالّذي سارَتِ الرّفاقُ إلـــــــى كعْبَتِهِ تستَحثُّها النُّجُــــبُ

ما المكْرُ بالمُحصَناتِ من خُلُقي ولا شِعاري التّمويهُ والكذِبُ [1]

يحتوي هذا الخطاب على عنصر إشاري اجتماعي، وذلك في قوله "المحصنات"، ولعل تقديم صورة عامة حول المشهد يساعدنا على فهم مرجعيات العناصر الإشارية.

يخبرنا الحارث أن أبا زيد وقف رفقة زوجته أمام القاضي، وقد اتهمته بخداعها، حيث بيّنت للقاضي أنّه أخبرها قبل زواجهما بأنّه صاحب حرفة، ليتبين فيما بعد أنّه رجل كسول، كثير النوم، لا يمتلك أي شيء يقتات منه.

وقد جاء المتكلم بالعنصر الإشاري الاجتماعي المتمثل في: "المحصنات" ليحيل على مرجع يكمن في زوجته، والملاحظ أن هذا العنصر يجسد مبدأ الاحترام، ويقوي الروابط التضامنية بين المتخاطبين، ويعبّر عن التقدير المتبادل بينهما، رغم خصامهما.

[1] - مقامات الحريري، ص 93.

وقد تستعمل الإشاريات الاجتماعية للإحالة على الجمع، وهو ما يتبين في قول أبي زيد: "**يا أخايِرَ الذّخائِرِ وبشائرَ العَشائِرِ عِموا صَباحاً، وأنْعِموا اصطِباحاً، وانظُروا إلى مَنْ كان ذا نَديّ ونَدًى**"[1].

يضم هذا القول عنصرين إشاريين اجتماعيين هما: "أخاير، بشائر"، اللذان يعبّران على التضامن والمحبة بين طرفي الخطاب، وقد قصد المتكلم هذا الاستعمال لدواع عدة، منها:

- حاجتة إلى المال والعطاء.
- محاولة التأثير في المخاطبين .
- استحقاق المخاطَبين هذه الصفة، كونهم رجال العلم والأدب.
- موضع التلفظ الذي يحتّم عليه استخدام الأساليب المهذبة في الخطاب.

5- أسماء الإشارة:

تعدّ أسماء الإشارة من الإشاريات التي " تتصل مباشرة بالمقام دون توسط عناصر إحالية أخرى، فهي ترتبط بالحقل الإشاري ارتباطا آنيا محدودا مباشرا لا يتجاوز ملابسات التلفظ التي يتقاسمها طرفا التواصل، وهي في ذلك تقابل العناصر الإحالية التي ترتبط بالسياق وما يتعلق به من ملابسات"[2].

وتعتمد أسماء الإشارة اعتمادا كليا على السياق، إذ لا يمكن تحديد مرجعها بمفردها دون اللجوء إلى عناصر خارجية، لذلك أدرجها العرب القدامى في صنف المبهمات، فقد عدّ النحاة أسماء الإشارة والأسماء الموصولة من المبهمات لوقوعها على كل شيء؛ من حيوان

[1] - المصدر السابق، ص 32.
[2] - الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 116.

أو نبات أو جماد، كما أنّها لا تدلّ على شيء معين مستقل بذاته إلا بأمر خارج عن لفظها، فاسم الإشارة لا يزول إبهامه إلا بما يصاحب لفظه من إشارة حسية، لذلك يكثر بعده مجيء النعت أو البدل أو عطف البيان...؛ لإزالة إبهامه[1].

وفي هذا يقول ابن يعيش: "يُقال لهذه الأسماء مبهمات؛ لأنها تشير بها إلى كل ما بحضرتك، وقد يكون بحضرتك أشياء فتلبس على المخاطب، فلم يدر إلى أيها تشير، فكانت مبهمة لذلك، ولذلك لزمها البيان بالصفة عند الإلباس، ومعنى الإشارة الإيماء إلى حاضر بجارحة، أو ما يقوم مقام الجارحة فيتعرّف بذلك، فتعريف الإشارة أن تخصص للمخاطب شخصا يعرفه بحاسة البصر"[2]، فهو يعتبر أن اسم الإشارة قد يقع فيه اللبس حتى في سياق التلفظ، فقد يستعمله المتكلم ويشير به إلى شيء معين، ويخطئ المخاطب في تعيين المرجع المقصود ولو كان حاضرا وقت التلفظ بالخطاب، لذلك يلجأ المتكلم إلى الاستعانة بجارحة من الجوارح سواء كانت يدا أو حركة لتحديد مرجعه، فهو "اسم يعين مدلوله تعيينا مقرونا بإشارة حسية إليه"[3]، وعليه فإن أسماء الإشارة لا يتحدد معناها إلا من خلال السياق التداولي؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها.

ومن نماذجها في المدونة قول الحارث مخاطبا أبا زيد:

"يا هذا أيَكونُ ذاكَ خبرَكَ، وهذا مَخْبَرَكَ؟"[4]

---

[1] - ينظر، عباس حسن، النحو الوافي، الجزء الأول، ص 338-339.
[2] - ابن يعيش النحوي، شرح المفصل، الجزء الثالث، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، دط، ص 26.
[3] - عباس حسن، النحو الوافي، الجزء الأول، ص 321.
[4] - مقامات الحريري، ص 22.

إن المتكلم يلوم المخاطب؛ لأنه خدعه، وأخذ أمواله، ليجده في النهاية يشوي جديا، ويشرب خمرا، وقد جاء العنصر الإشاري "هذا" الذي يُستخدم للإشارة إلى المفرد القريب كي يحيل على المخاطب، والملاحظ أنه لا يمكن تحديد مرجعه دون العودة إلى سياق التلفظ؛ لأنه من الأسماء المبهمة التي يتحدد معناها في السياق.

وقد تحكّمت العوامل التداولية في استخدام هذا العنصر الإشاري، ذلك أن المتكلم تعمّد توظيفه دون غيره من الكلمات التي بإمكانها أن تحيل على المرجع المقصود، مثل "رجل، سيد، شيخ..."، وهذا كي يظهر له ازدراءه وسخطه عليه؛ لأن هذا العنصر الإشاري غالبا ما يستخدم للتحقير، خاصة إذا ارتبط بالنداء، فلا يمكن للعبد أن يخاطب سيده بقوله: "يا هذا".

وهو ما يتبين أيضا في قول أبي زيد مخاطبا أحد رجال المجلس: "**يا لَلعجَبِ ولَضَيْعَةِ الأدبِ! لقدِ استَسْمَنْتَ يا هَذا ذا ورَمٍ، ونَفَخْتَ في غيرِ ضرَمٍ! أينَ أنتَ منَ البيْتِ النّدْر الجامِعِ مُشَبّهاتِ الثّغْرِ؟**"[1]

إن المتكلم في موضع عتاب، إذ بين للمخاطب أنّه ظلّ عن الصواب، لذلك وظّف هذا العنصر الإشاري الذي يحيل عليه.

وتستخدم أسماء الإشارة للإحالة على الأشياء المادية والمعنوية، فلا يشترط أن يكون المشار إليه شيئا محسوسا، وهو ما يظهر في هذا الخطاب:

[1] ـ المصدر السابق، ص 28.

"رَوى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قالَ: حضَرْتُ ديوانَ النّظَرِ بالمَراغَةِ، وقدْ جَرى بهِ ذِكْرُ البَلاغَةِ، فأجمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسانِ اليَراعَةِ وأرْبابِ البَراعةِ، على أنّهُ لمْ يبْقَ مَنْ يُنقّحُ الإنْشاءَ، ويتصرّفُ فيهِ كيفَ شاءَ، ولا خلَفَ بعْدَ السّلَفِ مَنْ يبتَدِعُ طريقةً غَرّاء، أو يفتَرِعُ رسالةً عذْراءَ. وأنّ المُفلِقَ من كُتّابِ هذا الأوانِ المُتمكّنَ من أزِمّةِ البَيانِ كالعِيالِ على الأوائِلِ، ولو ملَكَ فَصاحَةَ سحْبانِ وائِلٍ"[1].

يحيل العنصر الإشاري "هذا" على شيء معنوي، وهو الزمان أو العصر الذي عاش فيه المتكلم، وكي يتحدد مرجعه لابد من معرفة الجو الخارجي الذي يلفّ إنتاج الخطاب من ظروف وملابسات، لذلك فإن أسماء الإشارة هي عناصر سياقية، تعتمد اعتمادا كليا على سياق التلفظ.

وفي قول الحارث: " **فلما ألحَدوا المَيْتَ، وفاتَ قَوْلُ لَيْتَ ، أشرفَ شيخٌ من رُباوَةٍ متخصّراً بهِراوَةٍ، وقدْ لفّعَ وجهَه بردائِهِ، ونكّر شخْصَهُ لدَهائِهِ، فقال: لمِثْلِ هذا فلْيَعْمَلِ العامِلونَ، فادّكِروا أيّها الغافِلونَ"[2].**

استعمل المتكلم اسم الإشارة "هذا" ليحيل على مرجع تمثّل في الموت، فبالرغم من أنه لم يصرح به ولم يُتبع اسم الإشارة بكلمات تساعد على تحديد مرجعها، إلا أن المتلقي يحدد دلالتها ومرجعها دون أن يكلّف نفسه، وهذا نتيجة عوامل سياقية منها:

- موضع التلفظ: وهو المقبرة.

[1] - المصدر السابق ، ص 57.
[2] - المصدر نفسه ، ص 107.

- السياق العقائدي: فالمتكلم يؤمن بيوم البعث؛ لأن عقيدته هي الإسلام، والخطاب موجه إلى فئة مسلمة تؤمن بالآخرة، وتعمل لها.

والجدير بالذكر أن أغلب أسماء الإشارة تستخدم للإحالة على مرجع يعود على العاقل، وغير العاقل، والجامد أيضا، غير أن هناك أسماء تختص بأشياء محددة دون غيرها، مثل أسماء الإشارة التي تشير إلى المكان، فاسم الإشارة "هنا" يحيل على المكان القريب، وقد يضاف في أوله حرف التنبيه "ها"، فيكون في الحالتين سواء، وبسبب إحالته على المكان مع الإشارة فقد دخل في عداد ظروف المكان أيضا، وقد تدخل عليه كاف الخطاب المفتوحة فيصير اسم الإشارة للمكان المتوسط، مثل "هناك"، وقد يتصل بآخره كاف الخطاب المفتوحة وقبلها لام البعد فيصير مع الظرفية اسم إشارة للمكان البعيد مثل "هنالك"، وفي هذه الحالة تمتنع هاء التنبيه؛ لأن هاء التنبيه لا تجتمع مع لام البعد [1].

وعليه فإن مرجعيات هذا الصنف من أسماء الإشارة محصور في المكان فقط، وهو ما يساعد على تحديدها، غير أنها تبقى في حاجة إلى السياق، وهذا ما يتبيّن في قول أبي: " **قدْ أجّلتُكُمْ أجَلَ العِدّةِ، وأرخَيت لكُمْ طِوَلَ المُدّةِ، ثم هاهُنا مجمَعُ الشّمْلِ، وموقِفُ الفصْلِ، فإنْ سمحَتْ خواطِرُكُمْ مدَحْنا، وإنْ صلدَتْ زِنادُكُمْ قدَحْنا**"[2].

يتضمن الملفوظ اسم الإشارة "هنا" المسبوق بهاء التنبيه والذي يحيل على مكان قريب من طرفي الخطاب، والمتمثّل في مكان التخاطب الذي يحدده سياق التلفظ، ولا يمكن للمتلقي إحالة هذا العنصر الإشاري على مرجعه الحقيقي إلا بمعرفة موضع التلفظ.

[1] - ينظر، عباس حسن، النحو الوافي، الجزء الأول، ص 328.
[2] - مقامات الحريري، ص 169-170.

ويلجأ المتكلم إلى استخدام اسم الإشارة "هناك" إذا كان المرجع المقصود متموضعا بين القريب والبعيد؛ أي في الوسط، وهو ما يبيّنه الخطاب الآتي: من الرجز

إسمَعْ أُخَيّ وصيّةً منْ ناصِحٍ ما شابَ محْضَ النُصْح منه بغِشّهِ

لا تَعجَلَنْ بقضيّةٍ مبْتوتــــــةٍ في مدْحِ منْ لمْ تبلُهُ أو خدشِــــهِ

وقِفِ القضيّةَ فيهِ حتى تجْتَلي وصْفَيْهِ في حالَيْ رِضاهُ وبطْشِـــهِ

ويَبينَ خُلّبُ برْقِهِ منْ صِدْقِــهِ للشّائِمينَ ووبْلُهُ مـنْ طَشّـــــــهِ

فهُناكَ إنْ ترَ ما يَشينُ فـوارِهِ كرَماً وإنْ ترَ ما يَزينُ فأفْشِـــــهِ [1]

تتضمن هذه الأبيات الشعرية نصائح قدمها المتكلم للمخاطب، يطلب منه أن لا يستعجل في المدح والذم، حتى تزول كلّ الشّوائب التي قد تجعل المتكلم يمدح من لا يستحق المدح. فليس من السهل مدح شخص أو ذمه، حتى تتوفر الشروط اللازمة لذلك، وقد جاء العنصر الإشاري "هنالك" الذي يحيل على البعيد ليبيّن بعد الموضع الحقيقي الذي يستطيع من خلاله المتكلم المدح أو الذّم.

ثالثا- المعرفة المشتركة والإشاريات:

تعد المعرفة المشتركة من العناصر المؤثرة في الخطاب، وهي الرصيد المعرفي المشترك بين طرفي العملية التخاطبية، فهي الأرضية المعتمدة في إنجاز التواصل؛ إذ ينطلق المرسل منها لإنتاج خطابه، والمرسل إليه يعتمد عليها لتأويله وفهمه، وتتمثل في[2]:

[1] - المصدر السابق ، ص 220.
[2] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 49.

أ -معرفة العالم: فلابد لطرفي الخطاب أن تكون لهم دراية بكيفية الاتصال والتفكير بين المتخاطبين، ومعرفة حالة المجتمعات الثقافية والدينية والاقتصادية والاجتماعية...

ب-معرفة نظام اللغة في جميع مستوياتها واستعمالاتها.

وتلعب المعرفة المشتركة دورا فعالا في استخدام الإشاريات من طرف المتكلم؛ لأنه عالم بأن المخاطب قادر على إحالتها على مراجعها الحقيقية، وذلك بالاستعانة بها.

وقد تطرّق كل من هاليداي ورقية حسن إلى دور رفقاء السن في استخدام الإشاريات، حيث أوردا قائمة "بيرنشتاين" "bernstein" المتمثلة في "المجموعات ذات الرباط الاجتماعي الوثيق" وهم "زملاء السجن، وزملاء السلاح في الجيش، والطبقات الدنيا للمجرمين، ومجموعات السن للأطفال والكبار، والأزواج مع طول العشرة"[1]، فكل فئة من هذه الفئات تجمع بينها معارف مشتركة، تساعدها على استخدام الإشاريات وتأويلها التأويل المناسب.

وبالعودة إلى مدونتنا نلاحظ أهمية هذه المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب في تأويل الإشاريات وتحديد مرجعها المقصود، فالمتكلم يتلفظ بعنصر إشاري له مرجع خارجي يحيل عليه، وهو عالم بأن المتلقي لديه إمكانيات تكمن في معرفة العالم، يستطيع من خلالها تأويل الخطاب تأويلا صحيحا، وتحديد مرجعيات المبهمات من القول، وهذا ما نلاحظه في قول الحارث بن همام:

[1] - روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ، ص 337.

"فلما ألحَدوا المَيْتَ، وفاتَ قوْلُ لَيْتَ، أشرفَ شيخٌ من رُباوَةٍ، متخصّراً بهِراوَةٍ، وقدْ لفّعَ وجهَه بردائِهِ، ونكّر شخْصَهُ لدَهائِهِ، فقال: لمِثْلِ هذا فلْيَعْمَلِ العامِلونَ، فادّكِروا أيّها الغافِلونَ، وشمِّروا أيّها المقَصّرونَ"[1].

إن ما يُظهر دور المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب هو استخدام المتكلم لاسم الإشارة "هذا" الذي يحيل على مرجع يكمن في الموت، فبالرغم من عدم ذكره لهذا اليوم في خطابه إلا أن المتلقي يعرف قصده، وهذا بتوظيف تلك المعرفة المشتركة بينهما، فالمتكلم عالم بأن المتلقي قادر على إحالة اسم الإشارة إلى مرجعه الحقيقي دون التلفظ باسمه مباشرة؛ لأن تلك المعرفة بالعالم تجعله قادرا على فك شفرات الملفوظ.

وتكمن هذه المعارف المشتركة بين المتخاطبين في أن الإنسان المسلم التّقي ينصح أخاه بالعمل ليوم الآخرة، ويزهد في الدنيا ويحذر من فتنتها؛ لأنها تنتهي بمجرد لفظ الإنسان لأنفاسه الأخيرة، لتبدأ بعدها حياة أخرى يكون الجزاء فيها من جنس العمل. فلو لم تجمع بينهما تلك المعرفة المشتركة بالدين الإسلامي، لما استخدم المتكلم هذا العنصر الإشاري؛ لأنه يعلم أن متقبّل الخطاب لن يستطيع تحديد المرجع الحقيقي له.

وتقوم العناصر المشتركة ومعرفة العالم بين المتخاطبين بدور فعّال في تحديد مرجعيات العناصر الإشارية، خاصة تلك المتعلقة بالألغاز في خطاب المقامات، إذ يصعب على المخاطب تحديدها.

[1] - مقامات الحريري، ص 107.

والجدير بالذكر أن خطاب المقامات مليء بالألغاز التي تزيد القول تعمية منها قول أبي زيد: من الخفيف

قُلْ لمَنْ يُلغِزُ المسائِلَ إنـــــــــي   كاشِفٌ سِرّها الذي تُخْفيـــهِ

إنّ ذا الميّتَ الذي قدّمَ الشّــــــرْ   عُ أخا عِرسِهِ على ابنِ أبيهِ

رجُلٌ زوّجَ ابنَهُ عنْ رِضـــــــاهُ   بحَماةٍ لهُ ولا غَرْوَ فيـــــهِ

ثمّ ماتَ ابنُهُ وقدْ علِقَتْ مــــــنْ   هُ فجاءتْ بابنٍ يسُرّ ذويـهِ

فهُو ابنُ ابنِـــهِ بغيرِ مــــــراءٍ   وأخو عِرسِهِ بلا تَمْويـــــهِ

وابنُ الابنِ الصّريحُ أدْنى الى الـــجَ   دّ وأوْلى بإرْثِهِ منْ أخيــــهِ

فلِذا حينَ ماتَ أوجِــــــبَ للزّوْ   جَةِ ثُمْنُ التُراثِ تستَوفيــــهِ

وحوى ابنُ ابنِهِ الذي هوَ في الأصْ   لِ أخوها منْ أمّها باقِيــــهِ

وتخلّى الأخُ الشّقيـــــــقُ منَ الإرْ   ثِ وقُلْنا يكفيكَ أن تبكيـــهِ

هاكَ مني الفُتْيا التي يحْتَذيـــــها   كلُّ قاضٍ يقضي وكلُّ فَقيهِ[1]

يحاول المتكلم فك لغز مفاده أن رجلا مات، فأخذت زوجته جزءا من الإرث وما تبقى كان نصيبا لأخيها دون أخيه.

وتتضمن هذه الأبيات مجموعة من ضمائر الغائب التي لا يمكن تحديد مراجعها دون معرفة قانون الميراث في الإسلام، الذي يعدّ جزءا من المعرفة المشتركة بين طرفي التواصل، وقد لجأ المتكلم إلى استخدام العناصر الإشارية؛ لأنه يعلم أن المتلقي قادر على

[1] - المصدر السابق، ص 153-154.

إحالتها على مراجعها. ومن بين الإشاريات الواردة في هذه الأبيات ضميرا المفرد الغائب في البيت الخامس، وهما عنصران إشاريان يحيلان على مرجعين مختلفين هما:

أ -الضمير المنفصل "هو" الذي يحيل على ابن الابن المتوفى.

ب - الضمير المتصل في قوله: "عرسه" الذي يحيل على الهالك (صاحب المال).

وإذا انتقلنا إلى البيت السادس وجدنا ضمير المفرد الغائب، الذي يحيل على الهالك وذلك في قوله: "إرثه، أخيه".

كما يظهر في البيت الثامن دور المعرفة المشتركة في تحديد مراجع الضمائر، فهو يحتوي على ضمير الغائب في قوله: تبكيه" الذي يحيل على مرجع يكمن في الشخص الموروث، وقد ساعدت المعرفة المشتركة في تحديد مرجع هذا العنصر الإشاري، ذلك أن الإنسان يبكي على الميّت لا على الحي.

وتزداد المعارف المشتركة مع تقدم عملية الخطاب، فالمخاطَب يكتسب معلومات إضافية من خطاب المتكلم، وبذلك يسهل عليه تأويل الخطاب، وتحديد مراجع الملفوظات خاصة المبهمة منها، فهناك "عناصر أخرى للمعرفة المشتركة منها ما يحدثه التلفظ بالخطابات من أثر فتصبح هذه الخطابات عناصر سياقية للخطابات اللاحقة، مما يعين على الإحالة عليها، وهو ما يتجلى باستعمال الضمائر"[1].

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 51.

ففي قول الحارث: "**فرافَقْتُ صَحْباً قد شَقّوا عَصا الشِّقاقِ، وارْتَضَعوا أفاوِيقَ الوِفاقِ، حتى لاحُوا كأسْنانِ المُشْطِ في الاستِواء، وكالنّفْسِ الواحِدَةِ في التِئامِ الأهْواء، وكُنّا مع ذلِك نسيرُ النّجاء، ولا نرْحَلُ إلا كُلّ هَوْجاء** "[1].

اقترنت تاء المتكلم بالفعل "رافق"، أما واو الجماعة ففي قوله: "ارتضعوا، لاحوا" الذي يحيل على الجماعة التي رافقها الحارث والمذكورة سابقا، وعليه فقد أصبح هذا الخطاب جزءا من المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب، هذا ما جعل المتكلم يستخدم ضمير الجمع في قوله: "كنا، نرحل" بعد أن وظّف ضمير المفرد المتكلم في بداية خطابه، فهو يعلم أن المخاطب اكتسب معارف جديدة مع تقدم العملية التخطابية.

وعليه فإن المعرفة المشتركة تعد من أبرز العناصر الخارجية التي تتحكم في بنية الخطاب، وتأويله التأويل المقصود، وإحالة المبهمات من القول على مراجعها الحقيقية؛ فالمتكلم يعتمد عليها أثناء إنجازه للأفعال اللغوية؛ لذلك نجد اختلافا في بنية الملفوظات للمتكلم الواحد، وهو ما تتحكم فيه المعارف المشتركة بينه وبين متلقيه، فإذا توفرت بينهما يستخدم المتكلم العناصر الإشارية دون التصريح بمراجعها؛ لأنه يعرف أن المتلقي بإمكانه فهمها وإحالتها على مراجعها الحقيقية، وفي حالة عدم توفرها يعمد إلى الابتعاد عن المبهمات، أو الاستعانة بكلمات تساعد على إحالتها لفك غموضها.

نصل ختاما إلى أن الإشاريات ساهمت في تأسيس العلاقة الاجتماعية بين طرفي العملية التخاطبية في مقامات الحريري، حيث جسّدت الاستراتيجية التضامنية في الخطاب،

[1] - مقامات الحريري، ص 39-40.

وتعدّ الإشاريات الاجتماعية أكثرها تجسيدا لهذه الاستراتيجية، فقد كانت مؤشرا على الانتماء إلى الجماعة، ودليلا على الاتفاق في الرأي، ولهذه الإشاريات مجموعة من العوامل التي تتحكم فيها، أهمها: سلطة المرسل إليه، ومكانته العلمية، كذلك علاقة المرسل بالمرسل إليه، والفارق في السن بينهما، ومكان التخاطب، والمنفعة التي تخص المتكلم.

كما أن معرفة مكان التلفظ ساهم في تأويل الخطاب تأويلا صحيحا، حيث حصر التأويلات المختلفة، وبيّن نوع الشخوص المشاركة في العملية التخاطبية، ويعطي صورة مسبقة للخطاب الذي سينجز.

الفصل الثاني: أفعال الكلام في مقامات الحريري:

أولا- نشأة نظرية أفعال الكلام

ثانيا- أفعال الكلام المباشرة

ثالثا- أفعال الكلام غير مباشرة

رابعا- أفعال الكلام و السياق

أولا: نشأة نظرية الأفعال الكلامية

يعد هذا المفهوم الأساس الجوهري الذي انبثقت منه التداولية، وهو كل ملفوظ له نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك يعدّ نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية كالأمر والنهي والوعد والوعيد...الخ، وردود أفعال تأثيرية تخص المتلقي[1].

وقد ولدت نظرية الأفعال الكلامية في رحاب الفلسفة التحليلية، التي مهّد لها الفيلسوف الألماني "غوتلوف فريجة" في كتابه (أسس علم الحساب)، وعمّقها الفيلسوف النمساوي "فينتغستاين" ، هذا الأخير الذي يرى: أن وظيفة اللغة لا تقتصر على الإخبار والوصف فحسب، بل لها وظائف أخرى كالأمر والاستفهام والتمني والشكر والتهنئة...الخ.

ويعدّ الفيلسوف الانجليزي "أوستن" مؤسس هذه النظرية، ففي عام 1962 ظهر كتابه الموسوم ب(كيف ننجز الأفعال بالكلمات)، وقد بدأ عمله بالكشف عن التباين الموجود بين الملفوظات؛ الأولى تقريرية، والثانية تشبهها في البنية إلا أنها تختلف عنها في الوظيفة ؛ لأنها لا تصف ولا تخبر عن شيء، ولا تصوّر العالم الخارجي، وقد أطلق عليها المنطوقات الأدائية[2].

[1]– ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطبعة بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 40.

[2]- ينظر صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطبعة والنشر، بيروت ط1، 1993، ص 137.

وبذلك فإن اللغة –حسب أوستن– لا تقوم بالوصف والإخبار فقط، بل لها وظائف أخرى، ويستدل على ذلك بقوله: "وعندما أقول في الكنيسة أو عند من يكتبون العقد نعم أقبل الزواج بها، فأنا في هذا المقام لا أذيع خبرا ، ولا أنشره، بل إن لسان حالي يقول: "رضيت بالزواج" فماذا تسمى جملة من هذا النوع أو عبارة متلفظ بها من هذا القبيل؟ إني اقترح أن أطلق عليها مصطلح جملة إنجازية أو عبارة إنشائية... وتدلّ على أن إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل"[1].

لذلك عمد إلى تقسيم المنطوقات إلى قسمين[2]:

1 – إخبارية تقريرية: وهي أفعال تصف العالم الخارجي ، وتكون من ضمن الجمل الخبرية من قبيل: "الصحراء واسعة"، أو "أصبح العالم قرية صغيرة في زمن الاتصالات"، التي تصف الواقع وتخبر عنه، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

2 – إنشائية أدائية: لا توصف بالصدق والكذب بل تكون موفقة أو غير موفقة، ومثال ذلك: "أوصي بنصف مالي لبناء المسجد"، يؤدي هذا الملفوظ إلى إنجاز فعل . ويدخل في هذا الصنف: النصح والطلب والوعد والوعيد...

وقد حاول "أوستن" أن يلتمس وسائل لغوية تميّز الأفعال الأدائية عن الإخبارية، "فلاحظ أن هذه الأفعال في اللغة الانجليزية يُستخدم معها غالبا ضمير المتكلم مسندا إليه، والفعل في صيغة المضارع المبني للمعلوم ، وتكون موجهة إلى مخاطب، وهو من ثم يرى

[1] –أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، 1991 ص 17.

[2] - ينظر، صلاح الدين ملاوي ، نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 3.

أنك إذا قلت: "أعدك بكذا" كان فعلا أدائيا، لكنك إذا قلت: "وعدتك بكذا"، أو "أعده بكذا" لم يكن أدائيا"[1]، وبذلك يكون الفعل الكلامي فعلا أدائيا إذا كان زمنه في الحاضر، وموجها إلى المخاطب، أما إذا كان زمنه في الماضي، أو يحيل على الغائب فإنّه لا يشكل فعلا أدائيا.

غير أنّه لاحظ أن هناك ملفوظات تحتمل الوصف والأداء حسب سياقها، فقولنا: (تكثر الحفر في هذا الطريق)، فهذه العبارة تحتمل التقرير إذا كان المتكلم يهدف إلى الإخبار، وقد تفيد التنبيه أو التحذير إذا قصد ذلك، و عليه فإن المقام هو الفاصل في تحديد نوع الفعل.

كما أن هناك جملا لا تتوفر على الشروط اللغوية المذكورة سابقا، إلا أنها لا تصف الواقع، بل تشكل فعلا أدائيا بمجرد النطق بها، فإذا قلت: "بعتك " ، فهذه العبارة لا تخبر عن شيء، بل تشكل فعلا أدائيا يتحقق بعد التلفظ بها مباشرة، رغم افتقادها للشروط المذكورة سابقا، مما جعله يقرّ بأن كل جملة تامة متلفظ بها تقابل عملا لغويا منجزا على الأقل بغض النظر عن صيغتها، وهذا التمييز لا يزال مقبولا إلى يومنا هذا[2].

ويرى أوستن أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال ، تعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، هي: الفعل اللفظي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري[3].

أ -**الفعل اللفظي:** يتألف من أصوات لغوية تنتظم في بنية تركيبية سليمة، له معنى محدد،

---

[1]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص66.

[2]- ينظر آن روبول – جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس – محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 ،2003، ص 31.

[3]- ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 68.

وهو المعنى الأصلي، ومرجع يحيل إليه [1]، ويشتمل على المستويات اللسانية الآتية: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي.

ب– الفعل الإنجازي: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي في الاستعمال، كالتحذير، والأمر، والنهي، والوعد... ففي قولنا: "أعدك بالحضور غدا"، يكمن الفعل الإنجازي في الوعد، وبذلك فإن كل جملة مفيدة وسليمة تشكل لنا فعلا إنجازيا.

ج– الفعل التأثيري: وهو الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع، قد يكون جسديا أو فكريا أو قوليا أو شعوريا، كالخوف أو الدهشة. فإذا قالت الأم لابنها: "الكلب هناك"، فقد أنجزت فعلا لفظيا بأصواته المنطوقة وتركيبه النحوي السليم ومعناه الحرفي، وفعلا إنجازيا وهو التحذير، وفعلا تأثيريا يكمن في الأثر الناتج عن القول كالهرب، أو تغيير المسار، أو الخوف.

ويعتبر أوستن أن العرف هو الذي يتحكم في وقوع الفعل أو فشله، فإذا قال حكم المباراة للاعب "اخرج" سيتحقق الفعل، أما إذا قال له المشاهد "اخرج"، يفشل الفعل.

وقام بتصنيف الأفعال الكلامية حسب قوتها الإنجازية إلى خمسة أصناف[2]:

1– أفعال الأحكام: وتتمثل في حكم يصدر من طرف قاض أو حكم.

2– أفعال القرارات: و يراد بها اتخاذ قرار كالتعيين، أو العزل، أو الحرمان، أو الاختيار.

3–أفعال التعهد: وتتمثل في تعهد المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل كالوعد، والوعيد.

---

[1]– ينظر نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، كلية الآداب جامعة حلوان، ط1، 2013، ص43.

[2]- ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 69–70.

4– أفعال السلوك: وتكون ردّ فعل لحدث ما كالتحية، والشكر، والتحدي.

5– أفعال الإيضاح : وتستخدم لتوضيح وجهة نظر، أو لبيان الرأي كالموافقة ، والإنكار، والتشكيك.

وبذلك فقد كانت أعمالة بداية حقيقية للدرس التداولي، فبالرغم من أنّها لم تصل إلى مرحلة الكمال والنضج إلا أنها استطاعت أن تحدد القواعد والمبادئ الأساسية لبناء هذه النظرية، فكان له فضل السبق في هذا المجال، وشكلت أبحاثه منطلقا لكثير من اللسانيين الذين جاؤوا بعده، حيث قاموا بتطوير هذه النظرية، ومنحوها أبعادا جديدة.

وقد قام "سيرل" بتطوير إرث أستاذه "أوستن"، واستطاع بناء نظرية مكتملة الأواصر، ويمكن تحديد أهم ما قام به فيما يأتي[1]:

1 – عدّ الفعل الإنجازي الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي.

2 – يرى أن الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم ، فهو مرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي.

3– قسم الفعل الكلامي إلى أربعة أقسام تؤدَّى في الوقت نفسه ، وتشكل كيانا واحدا، وهي: الفعل النطقي، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري. يتمثل الفعل النطقي في تركيب الألفاظ في شكل نحوي ومعجمي صحيح، أما الفعل القضوي فيشتمل المتحدث عنه أو المرجع.

4– صنّف "سيرل" الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف:

[1]- ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 47– 51.

أ- الإخباريات أو التقريريات : غرضها الإنجازي هو الوصف، وهي ملفوظات تحتمل الصدق والكذب.

ب- التوجيهات أو الطلبيات: وهي محاولة المتكلم حمل المخاطب على أداء فعل ما، وتضم الاستفهام والأمر والرجاء والاستعطاف والتشجيع والدعوة والإذن والنصح والتحدي، وكثيرا من أفعال القرارات عند أوستن.

ج- الالتزاميات أو الوعديات: ويلتزم فيها المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل كالوعد والوعيد والوصية.

د- التعبيرات أو الإفصاحيات: ويعبّر فيها المتكلم عن الموقف النفسي كالشكر والاعتذار والمواساة.

ه- الإعلانيات أو الإيقاعيات : و تهدف إلى إحداث تغيير في الواقع، كالحُكم وصيغ العقود.

5- ميّز "سيرل" بين نوعين من الأفعال؛ أفعال كلامية مباشرة تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، أي ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية، وأفعال إنجازية غير المباشرة ، تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم، ومثال ذلك: إذا جاء العامل متأخرا ، وقال له صاحب العمل "كم الساعة؟"، فهذا فعل إنجازي غير مباشر ، إذ قوته الإنجازية الأصلية هي الاستفهام، لكن المتكلم لا يقصد ذلك، بل يهدف إلى التوبيخ.

6- طوّر "سيرل" شروط الملاءمة عند "أوستن"، وجعلها أربعة شروط هي:

أ- شرط المحتوى القضوي: وهو المعنى الأصلي للقضية.

ب– الشرط التمهيدي: ويتحقق إذا كان المتكلم قادرا على إنجاز الفعل.

ج–شرط الإخلاص: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل.

د– الشّرط الأساسي: ويتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السّامع.

7– يرى "سيرل" أن الأفعال الإنجازية قصدية، فإذا لم نقصد إعطاء أمر مثلا ، لا يشكل الفعل الكلامي أمرا.

نصل ختاما إلى أن نظرية الأفعال الكلامية التي تعدّ من أهم محاور الدرس التداولي، ظهرت كنظرية لها أسسها الفلسفية وضوابطها المنهجية على يد "أوستن"، وقام "سيرل" بتطويرها، ولعل أبرز ما توصلت إليه اعتبارها للقول أنّه بمثابة إنجاز عمل حقيقي.

وبعد هذا العرض الموجز لنظرية الأفعال الكلامية سنحاول استثمار ما توصلت إليه من قواعد وأفكار وآراء، وتطبيقها على مقامات الحريري.

يسعى هذا البحث إلى الاستفادة من الدرس التداولي عامة ونظرية أفعال الكلام خاصة، دون إغفال الدرس اللغوي التراثي ؛ فهذه النظرية لا يُعدم لها أثر في الموروث العربي؛ لأن علماءنا القدامى لم يغفلوا الجانب الوظيفي التداولي في دراساتهم اللغوية؛ إذ ربطوا اللغة بالسياق والقصد، وبينوا أن اللغة ليست أداة للوصف فحسب، بل يمكنها أن تنجز أفعالا بمجرد النطق بها، وبذلك "وصلوا إلى الفكرة المحورية التي كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهي أن من الكلام ما يكون فعلا أو إيقاعا لفعل بلفظ يقارنه في الوجود" [1].

[1]– محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص97.

لذلك عدّ بعض الباحثين المعاصرين أعمالهم خاصة تلك المتعلقة بالإنشاء نظرية مكافئة لنظرية أفعال الكلام.

وحري بالبيان أن ظاهرة الخبر والإنشاء لم تكن حكرا على تخصص واحد، فقد اهتم بها الفلاسفة والبلاغيون والنحاة والأصوليون، "وهؤلاء العلماء و إن تعددت تخصصاتهم العلمية، وتباينت آراؤهم في كثير من أصول الظاهرة أو فروعها أو تطبيقاتها فإنهم يلتقون على صعيد إجرائي هام ، ولا سيما المتأخرين منهم، وهو أنهم توغلوا في استعمال أدوات التحليل المنطقية وهي على قدر كبير من الدقة والتجريد"[1].

ولدراسة الأفعال الكلامية في خطاب المقامات يستوجب النّظر إلى النّص الأدبي على أنه فعل كلامي، أو مجموعة من الأفعال الكلامية المترابطة [2]، فهو يتكون من سلسة من الأفعال الكلامية الجزئية البسيطة ، تشكل فيما بينها حدثا كلاميا[3].

وسنحاول في هذه الدراسة الاعتماد على تقسيم "سيرل" للأفعال الكلامية، حيث قسّمها إلى قسمين؛ أفعال مباشرة تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم؛ أي ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية، وأفعال غير مباشرة تخالف قوتها الإنجازية مراد المتكلم.

---

[1]–مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص 50–51.

[2]- ينظر، قدور عمران، البعد التداولي للخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 69.

[3]-ينظر، شيتر رحيمة، تداولية النص الشعري، جمهرة أشعار العرب نموذجا، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009، ص158.

ثانيا: أفعال الكلام المباشرة:

يستخدم المتكلم الأفعال المباشرة رغبة في تبليغ قصده، وتحقيق هدفه الخطابي، دون إعطاء فرصة للمتلقي للتهرب أو التملص من مسؤولية الخطاب؛ لأنها لا تحتمل إلا تأويلا واحدا. وقد تعددت هذه الأفعال في مقامات الحريري بتعدد المواقف الخطابية، وفرضت ذاتها على الخطاب.

وتعد "المقامة الصنعانية" أول مقامة من مقامات الحريري، يحدّثنا الحارث فيها عن رجل غريب قام بخداع الناس في صنعاء اليمن، وأخذ أموالهم بعدما أوهمهم أنه طاهر شريف، ليتبيّن فيما بعد أنه أبو زيد السروجي، الذي يعرف بخداعه.

يشكل عنوان المقامة فعلا إنجازيا إخباريا يبين مكان وقوع أحداث المقامة ، حيث وقعت في صنعاء اليمن. فالعناوين لا تنفصل عن سياقاتها التي شكلت فيها، بل تعد أفعالا كلامية جامعة ، تتداخل بوضوح في سريان العملية التبادلية والتفاعلية للخطاب، فهي نصوص جامعة ومختصرة لنصوص أوسع منها[1].

وإذا انتقلنا إلى مضمونها وجدنا الكاتب استهلّها بقوله: "**لمّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغتِرابِ، وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرابِ، طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ، إلى صنْعاء اليَمَنِ، فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ، باديَ الإنْفاضِ، لا أمْلِكُ بُلْغَةً، ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً. فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثْلَ الهائِمِ، وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ، وأرُودُ في مَسارحِ لمَحاتي، ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي، كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي، وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي، أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي،**

---

[1]- ينظر، عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحافي الجزائري، دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 254.

وتُرْوي رِوايتُه غُلّتي"[1]، يتضمن هذا القول مجموعة من الأفعال الكلامية التقريرية، تحمل قوة إنجازية إخبارية ، غرضها المتضمن في القول هو إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به[2]؛ لأنه "يريد من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية"[3].

وقد تضافرت هذه الأفعال التقريرية فيما بينها لتخدم الفعل الكلامي المحوري وهو تيه الحارث بن همام.

وبعد وصول الحارث إلى النادي أنجز جملا تقريرية تحمل قوة إنجازية وصفية مفادها تبيان هيئة الرجل الذي يخطب على الناس، وذلك في قول ه: "**رأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ شخْصاً شخْتَ الخِلْقَةِ، عليْهِ أُهْبَةُ السّياحَةِ، وله رنّةُ النِّياحَةِ، وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهِرِ لفظِهِ، ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ، وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَرِ إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ**"[4].

بيّنت هذه الأفعال إعجاب الناس بهذا الرجل الغريب، لذلك التفوا حوله، ولعل هذا راجع إلى اعتماده على الشرط الأساسي عند "سيرل"، وهو محاولة التأثير في المستمعين.

ثم قال الحارث: "**وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيّعُهُ، ليَخْفَى علَيْهِ مَهْيَعُهُ**"[5]، وهو فعل تقريري يحمل قوة إنجازيه إخبارية، ينبئ باحتمال فشل الأفعال السابقة؛ لأن الرجل يُخفي نفسه عن الأنظار، فقد لا يتحقق شرط الإخلاص.

والملاحظ أن المتكلم تعمّد استخدام الأساليب المباشرة ؛ لأنها لا تترك للمرسل إليه مجالا للتأويل، ولا توقعه في مزالق الفهم الخاطئ ، فهناك سياقات تحتاج إلى هذا النوع من

[1]- الحريري، أبو محمد القاسم بن عثمان، مقامات الحريري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 4، 2003، ص 17-18.
[2]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 82.
[3]- المرجع نفسه، ص 81- 82.
[4]مقامات الحريري ، ص18.
[5]-المصدر نفسه ، ص21.

الأساليب، التي لا تناسبها الخطابات غير المباشرة، التي تعطي الأولوية للتأدب، ومرد ذلك إلى أسباب كثير منها ما يتعلق بأولوية التوجيه على التأدب، فالمرسل يولي عنايته فيها لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابي[1].

وقد تبعه الحارث إلى أن وجده "**مُشافِناً لتِلْميذٍ، على خبْزٍ سَميذٍ، وجَدْيٍ حَنيذٍ، وقُبالَتَهُما خابيةُ نبيذٍ**"[2]. وهي أفعال كلامية إخبارية تولّد منها فعل تأثيري يكمن في دهشة الحارث من هذا الرجل، فبعد أن كان يدعو الناس إلى العبادة، ويلومهم على أعمالهم، ويحذرهم من يوم الوعيد، ويأخذ الصدقات منهم، هاهو الآن يشوي جديا، ويشرب خمرا.

ومنه يمكن استخراج مجموعة من الحقائق التي تساعدنا على بناء الحدث الكلامي المنجز عبر المحطة السابقة، فالرجل استخدم مهاراته البيانية ، وحسن كلامه ليجني العطاء ويخدع السامعين.

وتتحدث " المقامة الحلوانية" عن رحلة الحارث إلى حلوان، أين وجد أبا زيد السروجي، وقد أُعجب به لحسن كلامه، فكان خير أنيس له، غير أنه سرعان ما غادر حلوان نتيجة الحاجة والفقر. ولما عاد الحارث إلى موطنه وجد رجلا رثّا في مجلس الأدباء، وقد أدهش الحاضرين ببداهته وعلمه، ليتبين له فيما بعد أنّه أبو زيد السروجي.

وقد تنوعت الأفعال الكلامية المباشرة في هذه المقامة بين التقريرية والطلبية، حيث استهلها الكاتب بأفعال تقريرية تحمل قوة إنجازية إخبارية ، وذلك في قوله: "**حَكى الحارِثُ بنُ هَمّامٍ قال: كلِفْتُ مُذْ ميطَتْ عني التّمائِمُ، ونِيطَتْ بيَ العَمائِمُ، بأنْ أغْشى مَعانَ الأدَبِ،**

[1]- ينظر، عبد الهادي بن ظاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 322.

[2]- مقامات الحريري، ص 22.

وأُنضيَ إليْهِ رِكابَ الطّلَبِ، لأعْلَقَ منْهُ بِما يكونُ لي زينَةً بينَ الأنامِ، ومُزنَةً عندَ الأُوامِ. وكُنْتُ لفَرْطِ اللّهَجِ باقْتِباسِه، والطّمَعِ في تقمّصِ لِباسِهِ، أُباحِثُ كلّ مَنْ جَلّ وقَلّ، وأسْتَسْقي الوَبْلَ والطّلّ، وأتعلّلُ بعَسى ولَعلّ"[1]، مفادها تبيان شغف الحارث بن همام بالأدب.

وبعدها ا لتقى الحارث أبا زيد السروجي ، وأنجز مجموعة من الأفعال الكلامية التقريرية التي تحمل قوة إنجازية وصفية، يصف فيها أبا زيد ، حيث قال: "**ألفَيْتُ بها أبا زيْدٍ السَّروجيَّ يتقلّبُ في قوالبِ الانتِسابِ، ويخْبِطُ في أساليبِ الاكتِسابِ، فيدّعي تارَةً أنّهُ من آلِ ساسانَ، ويعْتَزي مرّةً إلى أقْيالِ غسّانَ، ويبْرُزُ طَوراً في شِعارِ الشّعَراء، ويَلبَسُ حيناً كِبرَ الكُبَراءِ**"[2].

تولّد منها فعل تأثيري يكمن في تعلّق الحارث بأبي زيد.

ثم أكمل حديثه بأفعال تحمل قوة إنجازية إخبارية مفادها رحلة أبي زيد نتيجة الحاجة والفقر حيث قال: "**جدَحَتْ لهُ يَدُ الإمْلاقِ كأس الفِراقِ، وأغْراهُ عدَمُ العُراقِ بتَطْليقِ العِراقِ، ولفَظَتْهُ مَعاوِزُ الإرْفاقِ إلى مَفاوِزِ الآفاقِ، ونظَمَهُ في سِلْكِ الرّفاقِ خُفوقُ رايةِ الإخْفاقِ، فشحَذَ للرّحْلَةِ غِرارَ عزْمَتِهِ**" [3]، وقد تولّد منها فعل تعبيري ، وذلك في قوله: "**وظَعَنَ يقْتادُ القلْبَ بأزِمّتِهِ**"[4]، يتضمن قوة إنجازية حرفية تكمن في الحزن ، وعدم القدرة على الفراق؛ فالأفعال التعبيرية تكشف خفايا النفس البشرية وتبين انفعالاتها.

---
[1]- المصدر السابق، ص 24-25.
[2]- المصدر نفسه، ص 25.
[3]- المصدر نفسه ص26-27.
[4]- المصدر نفسه، ص27.

وبعدها عاد الحارث إلى موطنه ، ودخل دار الكتب، ليزجز سلسلة من الأفعال التقريرية منها: "**فدخَلَ ذو لِحْيَةٍ كثّةٍ، وهيئَةٍ رثّةٍ، فسلّمَ على الجُلاّسِ، وجلَسَ في أُخرَياتِ الناسِ**"[1]، قوتها الإنجازية هي الوصف، وتتضمن فعلا تأثيريا يكمن في الشفقة.

غير أن حسن كلام الرجل ألغى القيمة التأثيرية السابقة، بعدما أنجز مجموعة من الأفعال الكلامية المتنوعة ، التي أثرت خطاب المقامة منها: "**ما الكِتابُ الذي تنظُرُ فيهِ ؟**"[2]، وهو فعل توجيهي غرضه المتضمن في القول هو الاستفهام.

ومما يجب ذكره في هذا المساق أن هذه الأفعال الطلبية أو التوجيهية تتحكم فيها مجموعة من العوامل ، ولعل أهمها هو مبدأ المنفعة بين طرفي الخطاب ، الذي يجعل حكم أفعال التوجيه تتأرجح بين الوجوب أو الندب أو الاستحباب ، فإذا كانت المنفعة للمرسل تصبح أفعال التوجية واجبة الطاعة، وإذا كانت لصالح المرسل إليه فحكمها هو الندب[3].

وبعدها سأل أحد الحضور الرجل الغريب قائلا: "**لمنْ هذا البيتُ، وهلْ حيٌ قائِلُهُ أو ميْتٌ ؟**"[4]، وهو فعل طلبي يتضمن قوة إنجازيه مباشرة تكمن في الاستفهام ، الذي يندرج ضمن الطلبيات عند "سيرل"، وهو أسلوب إنشائي لا يصف ولا يخبر عن شيء ، بل يحدث فعلا بمجرد النطق به؛ لأنه "الخطاب التواصلي المكتمل إفاديا ، والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية"[5].

---

[1]- المصدر السابق، ص27.
[2]- المصدر نفسه، ص27.
[3]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 326.
[4]- مقامات الحريري، ص28.
[5]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 82.

وحري بالبيان أن العرب قسموا الأسلوب إلى قسمين: أسلوب خبري يحتمل الصدق أو الكذب وأسلوب إنشائي لا يحتملهما، فبمجرد النطق به يتحقق في الواقع، وهو ما يراه "أوستن" حين ميّز بين الأفعال التقريرية والأفعال الإنجازية على أساس قدرة الملفوظ على التغيير في الواقع، وعليه فإن نظرية الأفعال الكلامية تكافئ الدراسات العربية القديمة المتعلقة بالخبر والإنشاء، وما يتعلق بها من قضايا وفروع وتطبيقات[1].

ويخبرنا الحارث بن همام في المقامة الدمياطية عن رحلته إلى دمياط رفقة صحبه، حيث سمعوا حديثا جرى بين رجلين، فأصغوا إليه، وأعجبوا به إعجابا شديدا، وأعطوهما مالا وفيرا، ليتبين فيما بعد أنهما نصّابان، وأن أحدهما هو أبو زيد السروجي. وتضم هذه المقامة جملة من الأفعال الكلامية المباشرة، لعل أهمها قول أحد السّميرين:

فاهجُرْ منِ استَغباكَ هجرَ القِلى وهَبْهُ كالمَلْحودِ في رمْسِــهِ

والبَسْ لمَنْ في وصْلِهِ لُبسَهــةٌ لباسَ مَنْ يُرْغَبُ عنْ أُنسِـهِ

ولا تُرَجِّ الوُدَّ ممّــنْ يـــــرَى أنّك مُحْتاجٌ إلى فَلْسِــــهِ[2]

تتضمن هذه الأبيات فعلين طلبيين الأول أمر، والثاني نهي، كلاهما يتضمن قوة إنجازية يحددها قصد المتكلم الذي يتعلق بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه[3]. فلا

---

[1]– ينظر،المرجع السابق، ص 49.

[2]- مقامات الحريري، ص44.

[3] -ينظر:مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 150.

يختلف النهي في ذلك عن الأمر، وفي هذا يقول المبرد: "الطلب من النهي بمنزلته من الأمر، يجري على لفظه كما جرى على لفظ الأمر"[1].

وقد ولّدت هذه الأفعال الكلامية التي غلب عليها طابع النصح فعلا تأثيريا ، وهو تعلّق الحارث وأصحابه بهذين السّميرين، خاصّة بعدما تبيّن أنّ أحدهما هو أبو زيد.

ثم أنجز أبو زيد مجموعة من الأفعال الكلامية منها: "**أفتأذَنُ لي في قصْدِ قريَةٍ لأستَحمّ، وأقضيَ هذا المُهِمَّ؟ ... ستجِدُ مطْلَعي عليْكَ** "[2]، فالعبارة الأولى تضمنت فعلا طلبيا يحمل قوة إنجازية وهي الإذن، أما الثانية فقد شكلت فعلا كلاميا غرضه المتضمّن في القول هو الوعد، الذي يندرج ضمن الالتزاميات عند سيرل ، حيث يلتزم المتكلم طوعا بفعل شيء للمخاطب في المستقبل، شرط أن يكون مخلصا [3]، غير أن المتكلم يفتقر إلى شرط الصدق مما جعل فعله فاشلا؛ لأن الرجل لم يعد إليهم.

وإذا انتقلنا إلى "المقامة الكوفية" وجدناها تسرد أحداثا وقعت للحارث وأصحابه مع أبي زيد، فقد أخبرهم هذا الأخير بأنه التقى بغلام قبل مجيئه إليهم، فتبين أنه ابنه الذي لم يره من قبل، وقد أثّرت هذه القصة في المستمعين فأعطوه مالا، ثم طلب منه الحارث مرافقته لرؤية ابنه، فضحك حتى تغرغرت مقلتاه، وأخبره بأن ما قاله كان مكيدة للحصول على المال.

---

[1]-أبو العباس المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضمة، وزارة الأوقاف، مصر، ط1، 1994،ج2، ص 133.

[2]- مقامات الحريري، ص 45.

[3]- ينظر: صلاح إسماعيل، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص234.

وتبتدئ هذه المقامة بقول الحارث : "**سمَرْتُ بالكوفَةِ في ليلَةٍ أديمُها ذو لوْنَين، وقمرُها كتَعْويذٍ من لُجَين، معَ رُفقَةٍ غُذوا بلِبانِ البَيانِ، وسحَبوا على سَحْبانَ ذيْلَ النّسْيانِ، ما فيهِمْ إلا مَنْ يُحْفَظُ عنْهُ ولا يُتَحفَّظُ منْهُ، ويَميلُ الرّفيقُ إليهِ ولا يَميلُ عنهُ، فاستَهْوانا السّمَرُ، إلى أنْ غرَبَ القمَرُ، وغلَبَ السّهَرُ** "[1]، وهي أفعال تقريرية وصفية تصف الليل في الكوفة، والملاحظ في هذه الملفوظات استخدام الكاتب للضرب الابتدائي ؛ لأنّه لا يحتاج إلى مؤكدات في هذا الوصف.

ثم سمع الحارث صوت رجل غريب في هذا الليل المدلهم، حيث أنجز الرجل مجموعة من الأفعال الكلامية منها النداء في قوله: "**يا أهلَ ذا المَغْنى** "[2] ويراد به لفت الانتباه، والدعاء في قوله: "**وُقيتُمْ شَرّا**"[3].

وقد استطاعت هذه الأفعال أن تولّد أفعالا كلامية تحمل قوى إنجازية إخبارية وطلبيه، وأفعالا تأثيرية متنوعة منها السلوكية وذلك بفتح الباب ، وإكرامه بطعام شهي، والنفسية كالإعجاب بما قاله الرجل، وهذا يتبين في قول الحارث: "**فلمّا خلَبَنا بعُذوبَةِ نُطقِهِ، وعلِمْنا ما وَراء برْقِه، ابتَدَرْنا فتْحَ البابِ، وتلَقّيناهُ بالتّرْحابِ، وقُلْنا للغُلامِ: هيّا هَيّا، وهلُمّ ما تَهيّا**"[4].

---

[1]- مقامات الحريري ، ص 47-48.
[2]- المصدر نفسه ، ص 48.
[3]- المصدر نفسه، ص 48.
[4]- المصدر نفسه، ص49.

وتساعدنا هذه الأفعال التأثيرية في معرفة بعض الحقائق حول الحدث الكلامي الذي أنجزه الشيخ، فقد أراد حسن الضيافة، لذلك اعتمد على الشرط الأساسي في كلامه ، وهو محاولة التأثير في السامعين.

ثم قال الحارث مخاطبا الضيف: "**أطْرِفْنا بغَريبَةٍ منْ غَرائِبِ أسْمارِكَ** "[1]، وهو فعل طلبي يحمل قوة إنجازية حرفية وهي الأمر الذي تحقق نجاحه بمجرد التلفظ به، فا لأفعال التوجيهية تؤثر في الواقع وتغيّره، وهذا هو منطلق نظرية الأفعال الكلامية.

وحري بالبيان أن العرب قد توصّلوا إلى هذه الفكرة الأساسية التي تعدّ مرتكز نظرية أفعال الكلام، وهي أن "من الكلام ما يكون فعلا أو إيقاعا لفعل بلفظه يقارنه في الوجود" [2]، ولعل أفضل ما يمثل هذه القضية هي الأساليب الإنشائية الطلبية، ففعلها يتحقق بعد التلفظ بها مباشرة، غير أن هناك مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوفر لنجاحها لعل أهمها سلطة المرسل، وقدرة المتلقي على إنجاز الفعل؛ لأن هذه الأفعال تتحكم فيها العلاقة السلطوية بين طرفي الخطاب، وتتفاوت هذه العلاقة من التباين الشديد حتى التقارب الملموس، فلو كان طرفا الخطاب على درجة واحدة لاستعمل المرسل استراتيجية أخرى ؛ لأنه يعلم أن فعله مخفق لو استعمل التوجيه[3].

وتتحدث "المقامة المراغية" عن اجتماع في ديوان المراغة، حيث اتفق أصحابه أنّه لم يبق بليغ في هذا الزمان، وكان معهم كهل غريب دخل في نقاش حاد معهم، وبيّن لهم أن

[1]- المصدر السابق، ص50.

[2]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 97.

[3]- ينظر،عبد الهادي بن ظاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 324-325.

بلغاء عصرهم أفضل من سابقيهم، ثم أنشد أبياتا شعرية أدهشت السامعين، وبعدها أخبرهم أنّه صاحبها، فأُعجب الجمع به.

وقد حوت هذه المقامة جملة من الأفعال الكلامية المباشرة منها قول الرجل الغريب مخاطبا الجمع: "**لقَدْ جِئْتُمْ شيْئاً إدّاً، وجُرْتُمْ عنِ القصْدِ جِدّاً** "[1] وهما فعلان كلاميان تقريريان يتضمنان قوة إنجازية إخبارية مفادها وجود بلغاء في زمانهم.

والملاحظ استخدام الرجل لأداتي توكيد وهما "لام الابتداء" و"قد" التي سبقت الفعل الماضي، وهي من حروف المعاني التي تحقق الاختلاف والتباين في درجة الشدة للغرض المتضمن في القول *، وقد استخدمها الرجل ليقنع الحاضرين ، ويصدّقوا قوله ؛ لأنه يخالفهم في الرأي من جهة، ومن جهة أخرى فهو غريب عن الديار، والغريب غالبا ما يكون أدنى مرتبة من صاحب البيت.

ثم أنجز أفعالا كلامية تولّد منها فعلان تأثيريان؛ الأول معنوي وهو رضا الجماعة عنه، حيث "**أرضَتْهُ الجماعَةُ فِعْلاً وقوْلاً**"[2]، أما الثاني فهو سلوكي يكمن في العطاء. وبعدها سمع الوالي بحسن بيانه فأغرقه بالمال واللآلئ، مقابل بقائه معه ، وهذا ما بيّنه الحارث بن همام في قوله: "**ثمّ إنّ خبَرَه نَما إلى الوالي، فمَلأ فاهُ باللآلي، وسامَهُ أن ينضَويَ إلى أحشائِهِ، ويَلِيَ ديوانَ إنْشائِهِ، فأحْسَبَهُ الحِباءُ، وظلَفَهُ عنِ الوِلايَةِ الإباءُ**"[3].

---

[1]- مقامات الحريري، ص 58-59.

*-لاحظ سيرل أن هناك جملا تتشابه في الغرض المتضمن في القول غير أنها تختلف في درجة الشدة، ومثّل لذلك بجملتين لهما نفس الغرض المتضمن في القول وتختلفان في درجة الشدة وهما: أقسم أن بيل سرق المال، وأظن أن بيل سرق المال. ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 96-97.

[2]- مقامات الحريري، ص 64.

[3]- المصدر نفسه، ص 66.

والملاحظ أن القاضي في هذه الأفعال لم يتأثر بعد التلفظ مباشرة، بل ظهر عليه أثرها بعد مدة زمنية ، وعليه فإن الأفعا ل التأثيرية لا تتقيد بزمن محدد ، فبعضها يتحقق مع إنجاز الفعل مباشرة، والبعض الآخر يتحقق بعد مدة زمنية، قد تطول وقد تقصر،

وإذا انتقلنا إلى "المقامة الزبيدية" وجدنا مجموعة من الأفعال المباشرة المتنوعة بين التقريرية والطلبية والالتزامية والإيقاعية.

ولعل تقديم صورة لهذا المشهد يساعدنا على فهم طبيعة الأفعال المنجزة في هذه المحطة، فقد ذهب الحارث إلى سوق العبيد ليشتري غلاما ينسيه غلامه الهالك، فوجد غلاما حسن الخَلق والخُلق، وكان سيده رجلا ملثما ، تبيّن فيما بعد أنه أبو زيد، وأن الغلام ليس عبدا بل حر طليق بعدما خسر الحارث ماله.

فقد استطاع الرجل التأثير على الحارث بأفعال كلامية اعتمد فيها على الشرط الأساسي، تولد منها فعل تأثيري وهو الإعجاب الشديد بهذا الغلام، مما أفضى إلى إنجاز فعل إيقاعي ، وذلك في قول الحارث: "**فزِنْ مائَتَيْ دِرْهَمٍ إن شِيتَ، واشْكرْ لي ما حَيِيتَ، فنقَدْتُهُ المبلغَ في الحالِ**"[1]، يتضمن قوة انجازية تكمن في عقد صفقة بينه وبين البائع، حيث اشترى الغلام بمائتي درهم.

وبعدها غادر الشيخ وبقي الحارث مع عبده الذي أنجز أفعالا كلامية شعرية منها:

لمْ أبْكِ واللهِ على إلْفٍ نزَحْ ... ولا على فوْتِ نَعيمٍ وفَرَحْ

وإنّما مَدمَعُ أجْفاني سفَحْ ... على غَبيّ لحْظُهُ حينَ طمَحْ

[1]- المصدر السابق ، ص 364.

ورّطَهُ حتى نعَنّى وافتَضَـــحْ وضيّعَ المنْقوشَةَ البيضَ الوَضَحْ

ويْكَ أمَا ناجَتْكَ هاتِيكَ المُلَحْ بأنّنيحُ ــرٌّ وبَيْعي لمْ يُبَـــــحْ

إذ كان في يوسُفَ معنًى قد وضَحْ[1]

شكلت هذه الأفعال حدثا كلاميا، يبيّن أن الغلام ليس عبدا بل هو حرّ طليق، والحرّ لا يباع ولا يشترى، وقد تولد منها فعل تأثيري سلوكي تمثل في الشجار بينهما، حيث قال الحارث: "**جلنا في مخاصمة اتصلت بملاكمة، وأفضت إلى محاكمة**"[2].

ثم ذهبا إلى القاضي الذي أنجز جملة من الأفعال الكلامية، حيث قال: "**ألا إنّ منْ أنذرَ فقدْ أعْذرَ، ومنْ حذّرَ كمَنْ بشّرَ، ومَنْ بصّرَ فما قصّرَ، وإنّ فيما شرَحتُماهُ لَدَليلاً على أنّ هذا الغُلامَ قد نبّهَكَ فما ارْعَوَيْتَ، ونصَحَ لكَ فما وعَيْتَ** "[3]، تتضمن قوة إنجازية إخبارية، وتتبئ بحكم قاس على الحارث.

ثم قال القاضي: "**وحَذارِ منِ اعتِلاقِهِ، والطّمَعِ في استِرْقاقِهِ، فإنهُ حُرُّ الأديمِ** "[4]، تتضمن هذه الأفعال فعلا طلبيا ، قوته الإنجازية هي التحذير، وفعلا إيقاعيا غرضه المتضمن في القول هو الحكم، فقد حكم القاضي ببراءة الغلام وخسارة الحارث.

وقد استند القاضي في حكمه على مجموعة من الحقائق التي تبين بله الحارث وفطنة الغلام، منها الأفعال الكلامية التي أنجزها هذا الأخير في بداية المقامة ، حيث قال: من الكامل

---

[1]- المصدر السابق ، ص 367.
[2]- المصدر نفسه ، ص 368.
[3]- المصدر نفسه، ص368.
[4]- المصدر نفسه، ص368.

يا مَنْ تلَهّبَ غيظُهُ إذْ لمْ أبُــحْ — باسْمي لهُ ما هَكذا مَنْ يُنصِفُ

إنْ كان لا يُرضيكَ إلا كشْفُــــــهُ — فأصِخْ لهُ أنا يُوسُفٌ أنا يوسُفُ

ولقد كشَفْتُ لكَ الغِطاء فإن تكنْ — فطِناً عرَفتَ وما إخالُك تَعـــرِفُ[1]

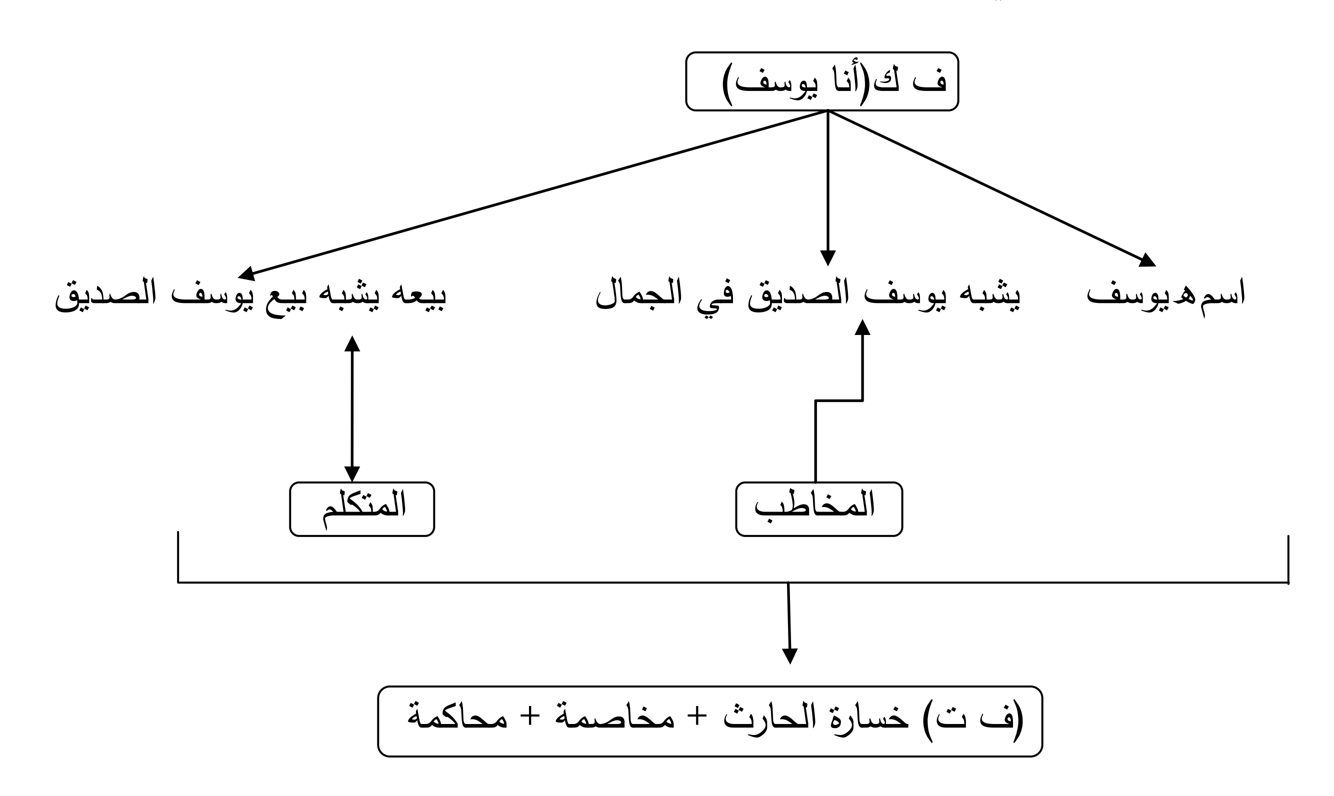
وهي أفعال غير مباشرة استعملها الغلام رغبة في التهرب من مسؤولية الخطاب ؛ لأنها تحتمل تأويلات عدة منها:

أ –اسم الغلام يوسف.

ب– تشبيه نفسه بيوسف الصديق في الجمال.

ج– إن بيعه يشبه بيع يوسف الصديق، فهو باطل.

ويمكن صياغتها في الخطاطة الآتية:



[1]- المصدر السابق ، ص 363.

حيث يمثل (ف ك) الفعل الكلامي، و(ف ت) الفعل التأثيري، ويبين الرمز ↑ الفهم الخاطئ للقصد، ويرمز الرمز ↕ إلى قصد المتكلم، أما الرمز ـــــ فيرمز إلى نتيجة الحدث الكلامي.

وبذلك فإن المتكلم يستطيع تأويل خطابه كما يشاء، وهذا ما قام به الغلام فقد بيّن للقاضي أنّه قصد الاحتمال الثالث، مما أوقع الحارث في شرك البله. وعليه فإن المرسل إليه قد يختار التأويل الذي يعتقد أنه الأنسب للسياق ، أما المرسل فإنه يبقي فرصة لينكر وينفي القصد الذي قد يوقعه في ورطة، فيخرج الخطاب إلى قصد آخر[1].

حاصل النظر فيما مضى أن الأفعال الإيقاعية يفترض أن تكون بصيغة مباشرة تبتعد عن التلميح الذي قد يفسد العقد.

لتنهي أحداث المقامة بنفس تفجّعي خاصة بعد اكتشاف الحارث أن الشيخ الذي باع له الغلام هو أبو زيد المعروف بخداعه ومكره.

ثالثا–أفعال الكلام غير المباشرة:

تعد الأفعال الكلامية غير المباشرة قضية جوهرية في الدراسات التداولية، وقد ظهرت على يد "سيرل"، وقام "غرايس" بتطويرها، حين حاول التفريق بين ما يُقال وبين ما يقصده المتكلم، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وما يُقصد هو ما

[1]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 372.

يريد المتكلم تبليغه بطريقة غير مباشرة [1]، اعتمادا على قدرة السامع في فك شفراته وفهم القصد، وذلك عن طريق ما يتاح له من أعراف الاستعمال، ووسائل الاستدلال[2].

وتزخر مقامات الحريري بأفعال كلامية غير مباشرة أثرت خطابها، وسنحاول فيما يأتي دراسة أهم النماذج التي تمثّل هذا الصنف من الأفعال بأنواعها الطلبية والتقريرية والتعبيرية والالتزامية والإيقاعية، وذلك باستكناه خباياها لمعرفة قصدها الكامن وراء كلماتها. ولن يتأتى ذلك إلا بمعرفة ما يحيط بها من عناصر سياقية؛ لأن هذه الأفعال هي أفعال سياقية لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن اللسانية والحالية وأضرب الاستدلال العقلي.

من بين الأفعال الكلامية غير المباشرة في المقامات الحريرية قول رجل غريب يخاطب الناس في ناد رحيب: "**أيّها السّادِرُ في غُلَوائِهِ،السّادِلُ ثوْبَ خُيَلائِهِ** "[3]، يتضمن هذا الفعل قوتين إنجازيتين؛ الأولى حرفية وهي النداء، أما الثانية غرضها اللوم والعتاب، فهو فعل غير مباشر حسب "سيرل"؛ لأن قوته الإنجازية لا تطابق مراد المتكلم، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بخروج الأساليب من معناها الحقيقي إلى أغراض أخرى، وفي هذا يقول السكاكي: "متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولّد منها ما ناسب المقام، كما إذا قلت لمن همك همه: ليتك تحدثني، امتنع إجراء التمني، والحال على ما ذكر على أصله، فطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصوله، وولد بمعونة قرينه الحال معنى السؤال"[4].

---

[1]- ينظر، آن روبول - جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص56.
[2]- ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.
[3]- مقامات الحريري ، ص18.
[4]–السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، دط، ص132.

ثم ينتقل للاستفهام بقوله: "**أتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتجالك ؟**" [1]، وهو استفهام إنكاري* يحمل قوة إنجازية غير مباشرة وهي التحذير، فالمتكلم لا ينتظر جوابا على سؤاله، بل قصد التحذير من يوم الوعيد، لذلك فإن القصد هو الذي يحدد قوة الفعل الإنجازي.

وقد تنبّه بعض العلماء العرب القدامى إلى معيار القصد في التمييز بين الخبر والإنشاء، مثل ابن يعقوب المغربي، وهذا يقوي التوجه التداولي في الدرس العربي القديم، حيث يقول: " الكلام التام الذي يحسن السكوت عليه... يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه، فإن القصد منه الدلالة على أن تلك النسبة حصلت في الواقع... بين معنى المسند والمسند إليه، فذلك الكلام خبر وإن كان القصد من الدلالة على أن اللفظ وجدت به تلك النسبة فالكلام إنشاء"[2]، فهو يرى أنّ الخبر لا يؤثر بلفظه في الواقع، أما الإنشاء فيوجده بعد التلفظ.

وقد ارتأى إبراهيم الشيرازي في تصنيفه لكلام إلى خبر وإنشاء الاعتماد على قصد المتكلم، "فالكلام يصير خبرا إذا انظم إلى اللفظ قصد المتكلم الإخبارية" [3]؛ فإذا كان المتكلم يقصد الإخبار كان كلامه خبرا، وإذا لم يقصد ذلك كان إنشاء.

---

[1]- مقامات الحريري، ص19.

*جعل الأصوليون الاستفهام منتقلا بين الخبر والإنشاء، فالاستفهام الخبري نوعان: استفهام إنكاري واستفهام تقريري، أما الاستفهام الإنشائي فأضربه كثيرة منها العرض والتحضيض والنهي والدعاء....

[2]–ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، (ضمن شروح التلخيص)، ج1، ص72.

[3]–شرح اللمع، تحقيق:عبد المجيد تركي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، مجلد2 ، ص 568 .

وبذلك فإنّ القصد هو الذي يتحكم في كون الجملة خبرية أو إنشائية، ولعل إدخال القصد في التمييز بين الخبر والإنشاء جعل الصيغة اللغوية غير معتمدة في ذلك، بحيث تكون بنية الملفوظ معيارا يكشف نوع الأسلوب [1]، وهذا ما يراه "أوستن" عندما وجد أن الكثير من الملفوظات تبدو خبرية في تركيبها، إلا أنها لا تخبر عن شيء، بل تنجز فعلا بمجرد النطق بها.

وفي قول الرجل الغريب: "**طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ، وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ، وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ، وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتماريْتَ، وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ، وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِي فما آسيْتَ، تُؤثِرُ فِلساً توعِيهِ، على ذِكْرٍ تَعيهِ، وتَختارُ قَصْراً تُعْليهِ على بِرٍ تُولِيهِ، وتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْدِيهِ إلى زادٍ تَستَهْديهِ، وتُغلِّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيهِ على ثوابٍ تشْتَريهِ، يَواقيتُ الصِّلاتِ أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصّلاةِ، ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ آثَرُ عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقاتِ، وصِحافُ الألْوانِ أشْهى إلَيْكَ منْ صَحائِفِ الأدْيانِ، ودُعابَةُ الأقْرانِ آنَسُ لكَ منْ تِلاوَةِ القُرْآنِ. تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماهُ، وتَحْمي عنِ النُّكْرِ ولا تَتحاماهُ، وتُزحزِحُ عنِ الظُّلْمِ ثمْ تغْشاهُ، وتخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ**"[2]، هي جملة من الأفعال التقريرية، غرضها المتضمن في القول يكمن في الإرشاد، والملاحظ أن القوة الإنجازية لهذه الأفعال تخالف ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية ؛ لأن ظاهرها يبدو لوما وعتابا، أما القيمة الحقيقة للفعل فلا، لذلك فإن هذا الصنف من الأفعال يتم التوصّل إليه بعد القيام

[1]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص81.

[2]- مقامات الحريري، ص 19-20.

بعملية استدلالية، تصبح معها البنية اللغوية الظاهرة للملفوظ مجرد ممر أو معبر للوصول إلى الفعل الإنجازي غير المباشر، الذي يقصده المتكلم[1].

وقد اعتمد الرجل على الشرط الأساسي عند "سيرل" ، وهو محاولة التأثير في المستمعين، لذلك تولّد من أفعاله فعل تأثير سلوكي، وذلك في قول الحارث: "**أدْخَلَ كلٌ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ، فأفْعَمَ لهُ سَجْلاً منْ سَيْبِه**"[2]، حيث قام كل واحد من الجمع بإعطائه مالا.

والملاحظ أنّ الفعل التأثيري أسهم في تحديد هوية الأفعال الإنجازية السابقة ، التي أنجزها الرجل، فالمستمع كان ينظر إليه على أنه رجل تقي زاهد، لا تهمه الحياة الدنيا، خاصة بعد إنجازه لأفعال لغوية غلب عليها طابع الدعوة إلى التّعبّد، والتحذير من يوم الوعيد، غير أنّه يأخذ الصدقات والأموال من المتلقين لخطابه، مما يدل على أنّ هدفه هو المال والعطاء لا النصح والإرشاد.

والملاحظ أن الأفعال التأثيرية لا تلازم جميع الأفعال الكلامية، عكس الأفعال الإنجازية التي تلازمها جميعا، ولعل هذا ما جعل "أوستن" يولي عناية خاصة للفعل الإنجازي، عندما وجد أن الكلام ينعقد بالفعل اللفظي، والفعل ا لإنجازي يلازم جميع الأفعال، أما الفعل التأثيري فقد لا ينتج من بعض الأفعال، فمنها ما لا تأثير له في السامع، لذلك جعل الفعل الإنجازي أساس هذه النظرية ولبّها ، فأولى له عناية خاصة، حتى أصبحت تعرف بالنظرية الإنجازية لدى رهط من الدارسين[3].

---

[1]- ينظر،عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص 370.

[2]- مقامات الحريري، ص21.

[3] – ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 69.

أما "المقامة الحلوانية" فهي ثريّة بالأفعال غير المباشرة ، منها قول رجل غريب مخاطبا أحد رجال دار الكتب: "**يا لَلعجَبِ ولَضَيْعَةِ الأدبِ! لقدِ استَسْمَنْتَ يا هَذا ذا ورَمٍ، ونَفَخْتَ في غيرِ ضرَمٍ! أينَ أنتَ منَ البيْتِ النّدْرِ الجامِعِ مُشَبّهاتِ الثّغْرِ؟** "[1]، ففي قوله:"**لقدِ استَسْمَنْتَ يا هَذا ذا ورَمٍ**"[2] فعل كلامي تقريري يحمل قوة إنجازية إخبارية غير مباشرة مفادها الذم، فقد استخدم الرجل هذا الفعل غير المباشر للتهرب من مسؤولية الخطاب، وكي لا يتخذ المرسل إليه خطابه دليلا عليه، لذلك كان كلامه تلميحيا يشوبه الحذر[3]؛ لأنه في مقام الذم.

وفي قوله : " **أينَ أنتَ منَ البيْتِ النّدْرِ؟** "[4]، استفهام تقريري يحمل قوة إنجازية إخبارية غير مباشرة ، تبين وجود أبيات شعرية في هذا الديوان أفضل مما قاله الرجل . فقد انتقلت دلالة التركيب من مستوى إلى آخر، فلم يعد الاستفهام يُراد به طلب المراد على جهة الاستعلام في هذه الجملة، بل تحول إلى فعل غير مباشر هدفه الإخبار، هذا إن دلّ فإنه يدلّ على أن هذه الأساليب ليست لغوية بحته ، بل هي لغوية تداولية، فلا بد من تضافر الأبعاد التداولية لفهم القصد دون إغفال بنية الملفوظ.

وحري بالبيان أن البلاغيين القدامى تنبهوا إلى خروج الخبر إلى الطلب، أي استعمال الخبر للدلالة على الطلب أو العكس، وهو ما يندرج ضمن دراسة الأفعال غير المباشرة، وفي هذا يقول السكاكي: " واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخي

[1]- مقامات الحريري، ص 28.
[2]- المصدر نفسه، ص 28.
[3]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 373.
[4]- مقامات الحريري، ص 28.

نكت قلّما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربه في نوعنا هذا، ولا يعضّ فيه بضرس قاطع، و الكلام بذلك متى صادف متممات البلاغة افتر لك عن السحر الحلال بما شئت"[1].

وفي قول الحارث: "**لا تلووا على خضراء الدمن**" [2]، فعل طلبي يحمل قوتين إنجازيتين؛ الأولى مباشرة تكمن في النهي، والثانية غير مباشرة مفادها النصح. فقد خرج الملفوظ من معناه الحرفي إلى معنى آخر، وهو ما يعرف لدى البلاغيين بالكناية؛ لأن الرجل لا يقصد ما تعنيه الكلمات بقيمتها الحرفية، بل أراد نصح مخاطبيه، الذين خُدعوا من قبل السروجي.

والجدير بالذكر أن العرب القدامى تنبهوا إلى خروج هذه الأساليب إلى أغراض أخرى، فالأمر يخرج إلى الدعاء أو الالتماس أو التهديد أو الإرشاد، وهذا ينطبق على بقية الأساليب الطلبيه[3].

ويخبرنا الحارث في "المقامة الكوفية" عن رجل غريب جاء إليه في ليل مدلهم، وقد أنجز هذا الأخير جملة من الأفعال غير المباشرة منها: "**ما عندكم لابن سبيل المرمل**" [4]، وهو فعل كلامي يحمل قوتين إنجازيتين؛ الأولى حرفية وهي الاستفهام، والثانية قصوى تكمن في الأمر، غير أن الآمر أضعف من المأمور، كونه غريبا عن الديار، هذا ما جعل الأمر التماسا أو رجاء، وهو ما يطلق عليه "سيرل" بمعيار الشروط المعدة، حيث تتدخل عناصر

---
[1]- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص 431.
[2]- مقامات الحريري ، ص 46.
[3]- ينظر:مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 117.
[4]- مقامات الحريري ، ص 51.

تداولية لسلطة المرسل، وجهة المنفع ة، فتعطي للتوجيه قوته الإنجازية ، لتغير منحى القوة الإنجازية، ويتحول الأمر إلى التماس[1].

وفي قول الكهل الغريب في المقامة المراغية: **"وهل للقدماء إذا أنعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة"** [2] استفهام تقريري، يحمل قوة إنجازيه غير مباشرة وهي الإخبار، فقد انتقلت دلالة التركيب من مستوى إلى آخر ، فتحول الاستفهام إلى تقرير ؛ لأن الرجل أنجز فعلا لغويا غير مباشر باستعمال فعل آخر.

وقد تولّد من هذا الفعل فعل تأثيري قولي، حيث قال أحد الأعيان: **"وعينُ أولَئِكَ الأعْيانِ، مَنْ قارِعُ هذِهِ الصّفاةِ، وقَريعُ هذِهِ الصّفاتِ ؟"**[3]، يحمل الفعل الأول قوة إنجازية تكمن في القسم، أما الثاني فهو استفهام يتضمن قوتين إنجازيتين؛ الأولى مباشرة غرضها المتضمن في القول هو السؤال، والثانية مستلزمة غرضها التعجيز.

وبذالك فإن الخطاب الواحد قد يتضمن معنيين؛ الأول مباشر والثاني مستلزم ، بدل إنتاج خطابات عدة[4]، وهو من أبرز سمات الأفعال غير المباشرة.

وإذا كان المتكلم يهدف إلى تعجيز الرجل الغريب بهذا الاستفهام فإن هذا الأخير حمل كلامه محمل الجد ؛ لأنه أجاب على سؤاله ، ليصبح استفهامه حقيقيا حيث قال: **"وإذا شِئْتَ ذاكَ فرُضْ نَجيباً، وادْعُ مُجيباً "**[5]، وهو فعل كلامي يتضمن قوتين إنجازيتين ؛ الأولى حرفية وهي الأمر، والثانية مضمرة يراد بها التحدي. ولعل استخدام هذه الأساليب غير

---

[1]- ينظر:عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 324.

[2]- مقامات الحريري ، ص 59.

[3]- المصدر نفسه، ص 59.

[4]- ينظر،عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 373 .

[5]- مقامات الحريري ، ص 59.

المباشرة من قبل المتكلم يراد بها التهرب والتملص من مسؤولية الخطاب كما يرى "براون" و"ليفنسون" مما يجعل الخطاب يحتمل تأويلات عدة[1].

ثم يقوم أحد الحضور ، ويذكر جملة من الأفعال الكلامية التقريرية والطلبية ، هي: **"اعْلَمْ أني أُوالي هذا الوالي، وأُرَقّحُ حالي بالبَيانِ الحالي، وكُنْتُ أستَعينُ على تقْويمِ أوَدي في بلَدي بسَعَةِ ذاتِ يَدي معَ قِلّةِ عدَدي، فلمّا ثَقُلَ حاذي، ونفِدَ رَذاذي، أمّمْتُهُ منْ أرْجائي برَجائي، ودعوْتُهُ لإعادَةِ رُوائي وإرْوائي، فهَشّ للوِفادَةِ وراحَ، وغَدا بالإفادَةِ وراحَ، فلمّا استأذَنْتُهُ في المَراحِ إلى المُراحِ على كاهِلِ المِراحِ قال: قدْ أزْمَعْتُ أنْ لا أزوّدَكَ بَتاتاً، ولا أجْمعَ لكَ شَتاتاً، أو تُنْشِئَ لي أمامَ ارتِحالِكَ رِسالَةً تودِعُها شرْحَ حالِكَ، حُروفُ إحْدى كلِمتَيْها يعُمّها النَّقْطُ، وحُروفُ الأخْرى لمْ يُعْجَمْنَ قطّ، وقدِ استأنَيْتُ بَياني حَوْلاً، فَما أحارَ قوْلاً، ونَبَهْتُ فِكْري سَنَةً، فما ازْدادَ إلا سِنَةً. واستَعَنْتُ بقاطِبَةِ الكُتّابِ، فكلٌ منْهُمْ قطّبَ وتابَ، فإنْ كُنتَ صدَعْتَ عنْ وصْفِكَ باليَقينِ فأتِ بآيَةٍ إنْ كُنتَ منَ الصّادِقين "**[2]، شكلت حدثا كلاميا مفاده محاولة تعجيز الكهل الغريب. وقد تولّد ت منها مجموعة من الأ فعال الكلامية أنجزها هذا الأخير منها: **"لقَدِ استَسْعَيْتَ يَعْبوباً "**[3]، وهو فعل تقريري يتضمن قوة إنجازية غير مباشرة تكمن في قبوله للتحدي . وقد عمد المتكلم في هذا الخطاب إلى استخدام أداتي التوكيد، وهما "لام الابتداء" و"قد" التي سبقت الفعل الماضي ، ليبين الثقة المطلقة في نفسه، ويرهب خصمه.

---

[1]-ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 372.

[2]- مقامات الحريري ، ص 61-62.

[3]- المصدر نفسه، ص62.

والملاحظ أن القوة الإنجازية خالفت المعنى القضوي للجملة، وهو ما تنبّه إليه العرب القدامى، ولعل ما أورده الجرجاني عن رواية أبي إسحاق الكندي مع ابن عباس المبرد خير ما يمثل ذلك، حيث قال: " إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني"[1]. فالكندي لا يرى في الكلام إلا معناه القضوي دون النظر إلى قوته الإنجازية، أما المبرد فقد تنبه إلى أن "المعنى الذي يقصده المتكلم يتخذ له من الوسائل اللغوية والمقامية ما يعين على إدراكه، فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب"[2].

ويخبرنا الحارث في المقامة البغدادية عن عجوز دخلت رفقة صبية إلى مجلس الشعراء، وألقت قصيدة شعرية منها: من البسيط

أتِحْ لنا اللـهُمّ مَنْ عِرضُـهُ مِنْ دنَسِ الذّمّ نـقـيٌ رحيضْ[3]

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 312-313.
[2]- محمود احمد، نحلة آفاق جديدة ص 108.
[3]- مقامات الحريري ، ص 132.

وهو أمر غرضه الدعاء، فقد يخرج الأمر من غرضه الحقيقي إلى أغراض أخرى؛ لأن الأصل في الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإيجاب، وقد يخرج إلى الدعاء والتمني والتهديد..[1].

تولّد القصيدة الشعرية منها مجموعة من الأفعال الكلامية، وهي: "**فوَاللهِ لقدْ صدّعتْ بأبياتِها أعْشارَ القُلوبِ، واستخْرَجَتْ خَبايا الجُيوبِ، حتى ماحَها مَنْ دينُهُ الامْتِناحُ، وارْتاحَ لرِفْدِها مَنْ لمْ نخَلْهُ يرْتاحُ** "[2]، فالعبارة الأولى تحمل قوتين إنجازيتين ؛ الأولى حرفية وهي القسم، والثانية غير مباشرة غرضها التعجب، وباقي العبارات شكلت أفعالا تقريرية، تحمل قوة إنجازية إخبارية، وفعلين تأثيريين ؛ الأول شعوري يكمن في تأثر المستمعين بكلام العجوز وإعجابهم به، والثاني سلوكي وهو تقديم العطاء لها.

وإذا انتقلنا إلى "المقامة الفرضية" وجدناها ثرية بالأفعال غير المباشرة، ولعل تقديم صورة عن المشهد يساعدنا على فهم هوية هذه الأفعال الكلامية المنجزة عبر هذه المحطة، فقد روى أبو زيد ما عاناه قبل مجيئه إلى الحارث ، حيث التقى بشيخ متأوه آهة الثّكلان، وجرى بينهما حديث أُنجزت فيه أفعال كلامية منها قولها: "**إن لبكائك سرا**"[3]، وهو فعل كلامي يبدو تقريريا في شكله ، إلا أن قصد المتكلم جعله طلبيا ؛ لأن الرجل يطلب منه أن يطلعه على سرّه ويخبره بمصابه، لذلك لم يعد الإخبار هو القصد؛ لأنه اختفى وراء الطلب.

[1]- ينظر: عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخاني، مصر، الطبعة الثالثة، 1989. ص14-15.
[2]- مقامات الحريري، ص 133.
[3]- المصدر نفسه، ص 148.

ولعل سبب استخدام الرجل لهذا الفعل غير المباشر هو العدول عن محاولة إكراه المرسل إليه أو إحراجه، فقد يكون هذا الأخير غير راغب في إنجاز الفعل ، لذلك يمنحه المرسل الرغبة في الرفض باللغة ، خاصة إذا كان أعلى مكانة من المرسل إليه، فهو يراعي مشاعر متلقيه[1]، وهو أحد مسوغات استعمال الأفعال غير المباشرة.

ثم أخرج الشيخ رقعة من كمه، تضم جملة من الأفعال الكلامية منها: " **أيها العالم الفقيه... افتنا في قضيته**" [2]،وهما فعلان طلبيان الأول نداء والثاني أمر، غير أن الآمر والمأمور متساويان في الرتبة، مما جعل الأمر التماسا، وفي معرض هذا الحديث يقول السكاكي: "وإن استعملت على سبيل التلطف، كقول كل أحد لمن يساويه في الرتبة افعل بدون استعلاء ولّدت السؤال أو الالتماس"[3].

إن هذه الأفعال الأخيرة حددت هوية الأفعال المنجزة سابقا من طرف الشيخ، فهو لا يبكي لفقر أو لحاجة ، بل لابتعاد الناس عن العلم والأدب ، لذلك كانت أفعاله تلميحية غير مباشرة شكلت ألغازا يصعب فك شفراتها، يحاول الرجل من خلالها معرفة قدرة أبي زيد، فإذا استطاع فهمها زال عنه الحزن.

وتزخر المقامة الزبيدية بأفعال كلامية غير مباشرة ، أنجزها الحارث حيث قال : "**قصَدْتُ منْ يَبيعُ العَبيدَ بسوقِ زَبيدَ، فقلتُ: أريدُ غُلاماً يُعجِبُ إذا قُلّبَ، ويُحمَدُ إذا جُرّبَ، وليَكُنْ ممّنْ خرّجَهُ الأكْياسُ، وأخرَجَهُ الى السّوقِ الإفْلاسُ، فاهتزّ كلٌ منهُمْ لمَطْلَبي،**

[1]- ينظر،عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 373.
[2]-مقامات الحريري، ص 150.
[3]- السكاكي، مفتاح العلوم، ص137.

ووثَبَوبذَلَ تحصيلَهُ عنْ كثَبٍ "[1]، يخبرنا المتكلم في هذا القول عن رحلته إلى سوق العبيد، لشراء غلام ينسيه غلامه الهالك. وقد بيّن ذلك بجملة من الأفعال الكلامية منها: " **فاهتزّ كلٌ منهُمْ لمَطْلَبي**"[2]،

وهو فعل كلامي غير مباشرة، قوته الإنجازية تكمن في الوعد، حيث وعد هالنخاسون أن يجدوا له غلاما يتصف بصفات نبيلة.

وقد أسهم مبدأ التعاون المنعقد بين المبدع والمتلقي في فك شفرات هذا الصنف من الأفعال غير المباشرة، فالمتكلم يقوم بخرق القواعد اللغوية المباشرة، وهو عالم بوجود آليات لغوية وغير لغوية لدى المتلقي كالافتراض المسبق ، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين، ومكان وزمان التخاطب، وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية، لفهم قصده، لذلك نجد المتلقي ينظر إلى تلك الخروقات على أنها آليات لإنجاز الفعل الكلامي.

غير أنّ هذا الوعد لم يتحقق ، مما جعل الفعل فاشلا؛ لأن النخاسين غير قادرين على الإتيان بغلام يحمل تلك الصفات التي طُلب ت منهم، لافتقادهم للشرط التمهيدي. ثم التقى الحارث بـرجل ملثم برفقة غلام، أنشد الرجل قصيدة شعرية، استهلها بقوله: من الرجز

من يشتَرِي مني غُلاماً صنَعا في خَلْقِهِ وخُلْقِهِ قد برَعا [3]

شكّلت أفعاله حدثا كلاميا يذكر فيه صفات الغلام النبيلة ، كحسن العمل والصناعة والأخلاق الفاضلة.

[1]- مقامات الحريري، ص 361.
[2]- المصدر نفسه، ص 361.
[3]- المصدر نفسه، ص 362.

ثم أنجز الغلام أفعالا كلامية مخاطبا بها سيده منها: من الوافر

لَحاكَ اللهُ هلْ مِثْلي يُباعُ لكَيْما تشبَعَ الكَرِشُ الجِياعُ [1]

وهو استفهام إنكاري غرضه التوبيخ، فهو يوبّخ صاحبه على بيعه؛ لأن مثله لا يباع.

ثم قال :

أمَا جرّبْتَني فخَبَرْتَ مني نصائِحَ لمْ يُمازِجْها خِداعُ [2]

وهو استفهام تقريري، يتضمن قوة إنجازية تكمن في اللوم والعتاب.

تولد من هذه الأفعال التي أنجزها الغلام فعل تأثيري، وهو بكاء الشيخ حتى أبكى من حوله.

إن كل هذه الأفعال جعلت الحارث يزداد قناعة بأن صفقته مربحة، وأنه ضفر بجوهرة ثمينة، غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلا ، فقد أفضت إلى مخاصمة، تلتها محاكمة بينه وبين الغلام.

من بين الأفعال المنجزة في المحكمة قول القاضي مخاطبا الحارث: "**ألا إنّ منْ أنذرَ فقدْ أعْذرَ، ومنْ حذّرَ كمَنْ بشّرَ، ومَنْ بصّرَ فما قصّرَ، وإنّ فيما شرَحتُماهُ لَدَليلاً على أنّ هذا الغُلامَ قد نبّهَكَ فما ارْعَوَيْتَ، ونصَحَ لكَ فما وعَيْتَ، فاستُرْ داءَ بلَهِكَ واكْتُمْهُ، ولُمْ نفْسَكَ ولا تلُمْهُ، وحَذارِ منِ اعتِلاقِهِ، والطّمَعِ في استِرْقاقِهِ، فإنهُ حُرُّ الأديمِ.** "[3]، وهي أفعال كلامية مختلفة، شكلت حدثا كلاميا إيقاعيا، مفاده حكم القاضي ببراءة الغلام.

---

[1]- المصدر السابق ، ص 364.
[2]- المصدر نفسه: ص 364.
[3]- المصدر نفسه ، ص368.

والملاحظ أن الأفعال المنجزة عبر هذه المحطة، شكلت سلسلة يمكن تصويرها في المخطط الآتي:

فعل وصفي (وصف الغلام) ← فعل تأثيري ← فعل إيقاعي

+ الشرط الأساسي (الإعجاب) (عقد الصفقة)

فعل إيقاعي ← فعل تأثيري

(حكم القاضي) (البكاء+ المخاصمة)

وتعد "المقامة الصنعانية" آخر مقامة من مقامات الحريري، والملاحظ فيها غلبة الأفعال المباشرة على قسيمتها، غير أن هذا لا يمنع من وجود بعض الأفعال غير المباشرة، فبعد وصول الحارث إلى المسجد أنجز أفعالا تقريرية وصفية، تصف شيخا دار الناس حوله، منها قوله: "**وقدْ عصيَتْ بهِ عُصَبٌ لا يُحْصى عديدُهُمْ، ولا يُنادَى وَليدُهُمْ** "[1]، وهو فعل غير مباشر، غرضه تعظيم الأمر نتيجة العدد الهائل من الناس المحيطين بالشيخ، وعدم وجود أطفال بينهم.

إن هذا الأسلوب في لغة التداوليين يطلق عليه الاستلزام الحواري، أما عند البلاغيين فهو كناية؛ لأن القيمة الحرفية لهذا الملفوظ تعني اجتماع عدد هائل من كبار القوم

1- المصدر السابق، ص 549.

حول الشيخ، لكن المتكلم لا يقصد ذلك، بل أراد أن يبيّن سحر كلام الشيخ، وبذلك فقد أطلق المتكلم لفظا، وأراد به معنى آخر، وهذا هو جوهر الكناية التي عرّفها الجرجاني بقوله: "والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"[1].

إن الصيغة اللغوية في مثل هذه الملفوطات غير كافيه لفهم قصد المتكلم، لذلك تتدخل عناصر غير لغويه كالسياق ، والافتراض المسبق والمعرفة المشتركة بين لمتخاطبين ، وآليات الاستدلال العقلي من طرف المتلقي، إضافة إلى مبدأ التعاون المنعقد بين المتكلم والمخاطب لفهم القصد، وعليه فإن الأفعال الإنجازية تتشكل من خلال العلاقات الدلالية والتداولية بين النص والسياق.[2]

محصّلة ما سبق أن الأفعال غير المباشرة على اختلاف أضربها هي أفعال سياقية، يستخدمها المتكلم، وهو عالم أن المتلقي لديه كفاءات تداولية، يستطيع من خلاله فك شفراتها، وفهم معناها.

رابعا– أفعال الكلام والسياق:

إن أهم ما يميز الدراسات التداولية هو الاهتمام بالسياق، فاللغة في نظر التداوليين لا يمكن دراستها وهي بعيدة عن الظروف المحيطة بها، والسياق هو الكل الذي يحيطك بظروف إنتاج الخطاب ، بالإضافة إلى المشاركين في إنتاجه، فبه تكتمل الدلالة وتتجح

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992، ص 66.
[2]- ينظر:فان دايك، علم النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، 2001، ص 146.

العملية التواصلية، ويفصل الاختيار بين التأويلات المختلفة، لذلك يرى "هايمس" أن للسياق دورا مزدوجا، فهو "يحصر مجال التأويلات الممكنة ويدعم التأويل المقصود"[1].

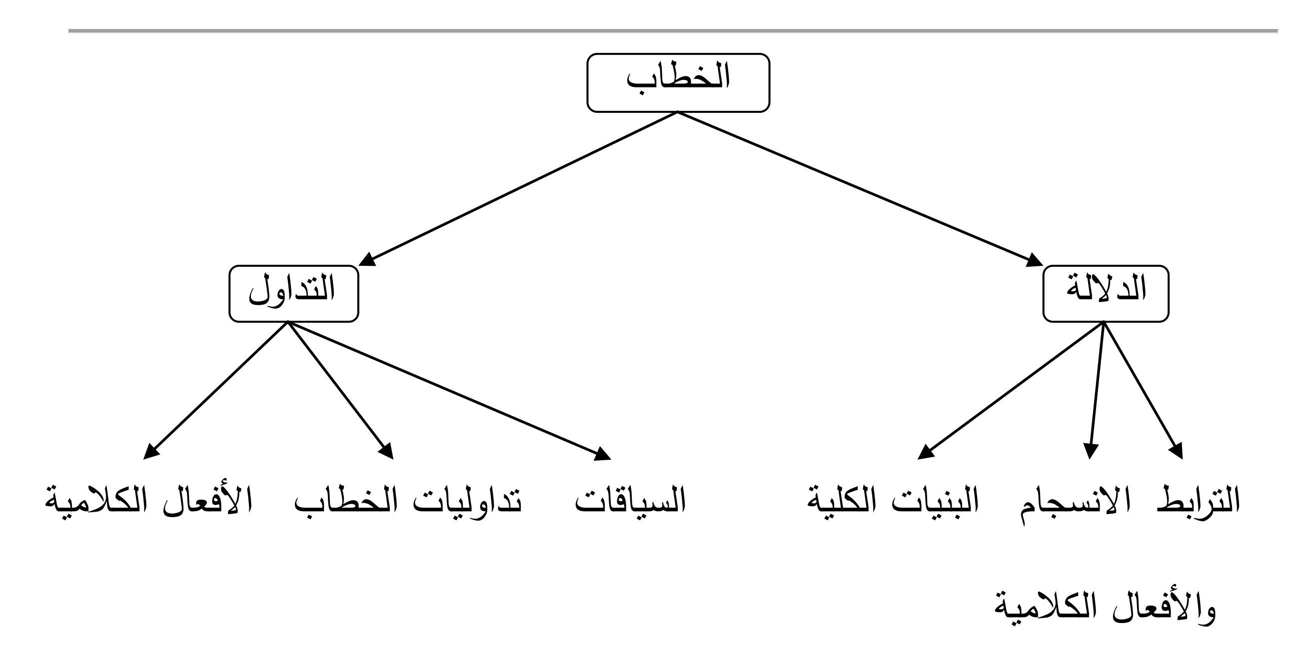
وللسياق عناصر كثيرة لذلك نجد العلماء يختلفون في تحديدها ، فقد حصرها "براون ويول" في المتكلم والمستمع والقارئ والمكان والزمان، أما عند "هايمس" فيتكون من المرسل، والمتلقي، والحضور، والموضوع وهو مدار الحدث، والمقام وهو زمان ومكان الحدث التواصلي، إضافة إلى العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين كملامح الوجه والإشارات ..، والقناة سواء أكانت كلاما أم كتابة أم إشارة، والنظام ويقصد به اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستخدم، وشكل الرسالة كالدردشة أو الجدال ... ، والمفتاح الذي يتضمن التقويم هل كانت الرسالة موعظة أو شرحا...، والغرض أي ما يقصده المشاركون[2].

وعليه فإن السياق يتمثل في الجو الخارجي الذي يلف إنتاج الخطاب من ظروف وملابسات، ويتكون من طرفي الخطاب، وهما المرسل والمرسل إليه، وما بينهما من علاقة، بالإضافة إلى مكان وزمان التلفظ، وما فيه من شخوص، كذلك العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية، وأثر تبادل الخطاب على المتخاطبين[3].

وقد قسم "فان دايك" كتابه "النص والسياق" إلى قسمين، الأول دلالي، والثاني تداولي، ويمكن عرض المظاهر المندرجة تحتهما في الخطاطة الآتية[4]:

---

[1]- محمد خطابي، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص 52.
[2]- ينظر، المرجع نفسه، ص 52 -53.
[3]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45.
[4]- ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 27.



والأفعال الكلامية

وحري بالبيان أن السياق حظي في الدراسات العربية القديمة بمكانة مرموقة، خاصة عند المفسرين وعلماء أصول الفقه والبلاغيين، فقد كان هدف المفسرين وعلماء الأصول هو الفهم الصحيح لمحتوى القر آن الكريم، أما البلاغيون فلعل أهم ما يبين احتفاءهم بالسياق مقولتا: "لكل مقام مقال"، "ومطابقة الكلام لمقتضى الحال"، وفي معرض هذا الحديث يقول الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين": "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حال من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1].

وقد أولت نظرية الأفعال الكلامية الأهمية للأفعال ذات الامتداد الاجتماعي المنجزة في سياقات محددة ، فقد اشترط "أوستن" لنجاح الفعل الكلامي توفر مجموعة من عناصر السياق، أدرجها في مفهوم شروط نجاح الفعل الكلامي ، وعدّ السياق فاصلا في تحديد نوع

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الجزء الأول، مكتبة الخانجي، ط7، 1998، ص 138-139.

الفعل المنجز أو القوة الإنجازية للفعل الكلامي، فقولنا: "سنرحل الآن" قد يفهم على أنّه خبر أو وعد أو أمر.

والملاحظ توفر الكثير من العناصر السياقية في مقامات الحريري كالمتكلم ، والمخاطب والمكان ، والزمان ، والحالة الاجتماعية والثقافية السائدة في عصر صاحبها، والحالة النفسية لشخصيات المقامات، إضافة إلى معرفة القارئ للمشاركين في الحدث التواصلي، مما ساعد على حصر مجالات التأويل، وفهم القصد.

ففي قول الحارث مخاطبا أبا زيد: "**يا هذا، أيكون ذلك خبرك**"[1] فعلان كلاميان طلبيان، الأول يحمل قوتين إنجازيتين؛ الأولى حرفية وهي نداء، والثانية غير مباشرة غرضها التحقير. وقد ساعدنا السياق في فهم قصد المتكلم، فهذا الأخير يخاطب رجلا قام بخداعهم ، وأخذ أموالهم بعدما أوهمهم أنّه رجل تقي، لذلك فإن هذا الملفوظ لا يحتمل غير التحقير ؛ لأن القصد "يتحدد من خلال السياق بعناصره الكثيرة، فهو ركيزة في الخطاب لتجسيد معنى المرسل بدلا من التقيد بالمعنى اللغوي البحت، رغم أنه قد يتطابق معه في بعض السياقات"[2].

أما الفعل الثاني فهو استفهام في شكله يراد به التعجب ؛ لأن حالة الحارث النفسية بعدما خيب الرجل ضنه جعلته يتعجب منه، وعليه فإنه كلما توفرت معلومات عن سياق النص كالمتكلم والمستمع والمكان والزمان ونوع الرسالة زادت الحظوظ في فهم النص وتأويله[3].

[1]- مقامات الحريري، ص 22

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص78.

[3]- ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 297.

وقد أجابه الرجل بقوله: " **أُدن فكل**" [1]، وهو فعل طلبي يحمل قوة إنجازية وهي الأمر، غير أن الآمر ليس بأعلى مكانة من المأمور ، مما جعل الفعل مخففا؛ لأن الأمر "استدعاء الفعل لمن دونه فتصبح الرتبة شرط صحة الأمر" [2]، وهذا ما سماه "سيرل""بمعيار الشروط المعدة"، وفحواه أن تجتمع ظروف تداولية، فتغير من قوة المتكلم أو المخاطب، وتؤثر على الخطاب. وعليه فإن هذه الأساليب ليست لغوية فحسب، بل هي لغوية سياقية.

وقد أسهم السياق في إنجاز هذا الفعل الكلامي، فالرجل يدرك غضب الحارث منه نتيجة لفعلته الشنيعة؛ لأنه قام بخداعهم وأخذ أموالهم، بعدما بين لهم أنه رجل تقي طاهر، ليجده الحارث على هذه الحالة، فحاول أن يليّن قلبه بعزمه على الأكل، مستخدما صيغة الأمر التي خرجت من غرضها الحقيقي إلى أغراض أخرى.

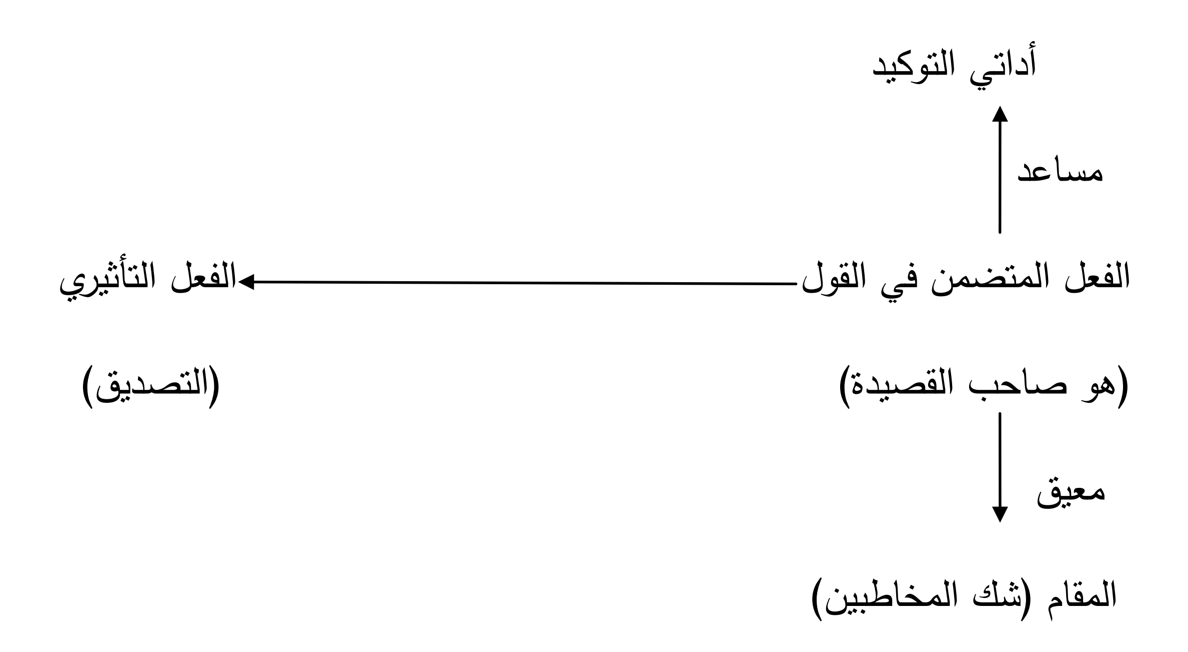
وفي قول رجل غريب في "المقامة الحلوانية": "**أيْمُ اللهِ لَلحَقُّ أحَقُّ أنْ يُتّبَعَ، ولَلصّدْقُ حَقيقٌ بأنْ يُستَمَعَ، إنّهُ يا قَوْمُ لنَجيّكُمْ مُذُ اليوْمَ** "[3]، يبيّن المتكلم لمخاطبيه أنه صاحب القصيدة الشعرية التي أُعجبوا بها إعجابا شديدا. ولعل أهم ما يبرز دور السياق في تحديد صيغة هذا الملفوظ هو استخدام الرجل لأداتي التأكيد، وهما: "القسمّ و"إنّ"، كي يصدّقوا قوله؛ لأن المقام يعيق ذلك، كون السامع منكرا للخبر، فهو يتساءل: كيف لهذا الرجل الرّث أن ينجز قصيدة على هذا المنوال العجيب؟ وبذلك فإن المقام يستوجب تأكيد الكلام بأكثر من أداة، وهو ما يعرف بالضرب الإنكاري.

---

[1]- مقامات الحريري، ص23.
[2] - بو المظفر السمعاني، قواطع الأدلة في أصول الفقه، مكتبة التوبة، ط1، 1998، ص221.
[3]- مقامات الحريري، ص 28.

والملاحظ أن المتكلم قصد التأثير في المستمعين، غير أن الأفعال التأثيرية ليس من الضروري أن تؤدى قصديا، فالمتكلم قد ينجز فعلا تأثيريا في المخاطب كالإزعاج أو التخويف دون قصد منه، فالأفعال التأثيرية قد تكون قصدية وقد لا تكون[1].

ويمكن بيان ما سبق في المخطط الآتي:



ومما يجب ذكره في هذا المساق أنّ العرب القدامى جعلوا الخبر ثلاثة أضرب، ضرب يكون فيه المتلقي خالي الذهن ، لا يحتاج إلى تأكيد الكلام ، سمّوه الضرب الابتدائي، وضرب يكون فيه المتلقي شاكا في الكلام يحتاج إلى أداة توكيد واحدة ، أطلقوا عليه الضرب الطلبي، أما الثالث فيكون فيه المتلقي منكرا للخبر، يحتاج إلى أكثر من أداة وهو الضرب الإنكاري.

[1]- ينظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 2006، ص203.

وفي هذا يقول السكاكي: "فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقى إليه، ليحضر طرفاها عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتقاء ، كفى في ذلك الانتقاش حكمه، ويتمكن لمصادفته إياه خاليا... فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم، وسمّي هذا النوع من الخبر: ابتدائيا، وإذا ألقاها إلى طالب لها، متحير طرفاها عنده دون الاستناد، فهو من بين وبين، لينقذه عن ورطة الحيرة، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو إن، كنحو: لزيد عارف، أو إن زيدا عارف، وسمّي هذا النوع من الخبر طلبيا، وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنحو:" إني صادق" لمن ينكر صدقك إنكارا، "و إني لصادق" لمن يبالغ في إنكار صدقك... ويسمى هدا النوع من الخبر إنكاريا"[1].

أما في لغة التداوليين فيطلق عليه: "درجة الشدة للغرض المتضمن في القول"؛ فقد لاحظ "سيرل" أن هناك جملا تتشابه في الغرض المتضمن في القول ، غير أنها تختلف في درجة الشدة، ومثّل لذلك بجملتين لهما الغرض نفسه، وتختلفان في درجة الشّدة وهما: أقسم أن "بيل" سرق المال، وأظن أن "بيل" سرق المال[2].

وبعدها أنجز الحارث مجموعة من الأفعال التقريرية ، يخبرنا فيها عن تبدل حال أبي زيد بعد إكرامه ، ونيل مبتغاه منها قوله : "**وضحِكَ حتى تغَرْغَرَتْ مُقلَتاهُ بالدّموع** "[3]، وهو فعل تقريري يحمل قوة إنجازية غير حرفية تكمن في السخرية والخداع ، والملاحظ أ نّ المتكلم

[1]- السكاكي، مفتاح العلوم، ص 258 259.

[2]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 96-97.

[3]- مقامات الحريري ، ص 55.

استخدم آلية التلميح بدل التصريح لإنجاز فعله الكلامي، وهو عالم بقدرة المتلقي على فكّ شفراته وفهم قصده، وذلك باستثماره للمعطيات اللغوية والعناصر السياقية كالمعرفة المشتركة، والمكان، والزمان... فللمتكلم يعلم أن أبا زيد يُعرف بخداعه ومكره ، واستغلال حسن كلامه للكيد بالسامعين، وهناك عناصر سياقية أخرى ساهمت في تحديد القصد منها حالة أبي زيد النفسية التي لا تسمح له بالضحك نهائيا لو كان صادقا فيما رواه. وبذلك فإن للسياق دور ا فعالا في تواصلية الخطاب ، وفي انسجامه ، ولن يكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه [1]. وهو ما ينطبق على الكلمة المفردة أيضا، فهي تؤدي معنى محددا إذا استعملت في السياق ؛ لأنه الوحيد القادر على منح اللفظة المفردة دلالتها المحددة، وهو وحده الذي يحدد قيمتها[2].

وفي قول أبي زيد في "المقامة السّاويّة": من الهزج

ولا ترْكَـــنْ إلى الدهرْ   وإنْ لانَ وإن ســرّ

فتُلْفى كمـــنْ اغتَــرّ   بأفعى تنفُثُ السـمّ

وخفّضْ منْ تراقيــــكْ   فإنّ الموتَ لاقِيــكْ

وسارٍ في تراقيـــــــكْ   وما ينكُــلُ إنْ همّ

وجانِبْ صعَرَ الخـــــدّ   إذا ساعدَكَ الجــدّ

وزُمّ اللفْظَ إنْ نـــــــدّ   فَما أسعَـدَ مَنْ زمّ

ونفِّسْ عن أخي البثّ   وصدّقْـــهُ إذا نثّ[3]

---

[1]- محمد خطابي، لسانيات النص، ص56.
[2]- ينظر، محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2006، ص 322.
[3]- مقامات الحريري، ص 112.

هي أفعال طلبية تتضمن قوة إنجازية تكمن في الندب؛ لأنه يدعو إلى العمل من أجل ثواب الآخرة، فالندب شبيه بالإرشاد ، إلا أن "الندب لثواب الآخرة ، والإرشاد للتنبيه على المصلحة الدنيوية"[1].

وقد تُوّجت هذه الأفعال الكلامية بفعل تأثيري يكمن في العطاء، حيث أعطاه الجمع مالا وفيرا. وبذلك فإن المرسل استطاع تحقيق هدفه بأفعال إنجازية أحسن استخدامها،[2].

وقد ساعد السياق في نجاح هذه الأفعال الكلامية ؛ لأن المتكلم استغل خشوع الناس في المقبرة وخوفهم من الموت، لينجز أفعاله المتعلقة بالندب، وعليه فإن السياق قد يساهم في تحقق نجاح الأفعال الإنجازية، وتوليد الأفعال التأثيرية.

ويظهر أثر السياق في "المقامة الزبيدية" في حديث الغلام قبل عقد صفقة بيعه للحارث، حيث قال:

يا مَنْ تلَهّبَ غيظُهُ إذْ لمْ أبـُـحْ باسْمي لهُ ما هَكذا مَنْ يُنصِفُ

إنْ كان لا يُرضيكَ إلا كشْفُـــــهُ فأصِخْ لهُ أنا يُوسُفٌ أنا يوسُفُ

ولقد كشَفْتُ لكَ الغِطاء فإن تكنْ فطِناً عرَفتَ وما إخالُك تَعـــرِفُ[3]

يشكل هذا الملفوظ حدثا كلاميا إخباريا، مفاده أن الغلام هو يوسف، وقد أنجزه المتكلم ليوقع الحارث في شركه؛ فبعدما اشتراه هذا الأخير بثمن باهظ، تبين أنه حرّ طليق، مما أدّى إلى

[1]- أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997، الجزء الثاني، ص68.

[2]-ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتيجيات الخطاب، ص 45.

[3]- مقامات الحريري، ص 363.

مخاصمة تلتها محاكمة، بيّن فيها الغلام للقاضي أنّه أخبر الحارث قبل عقد صفقة البيع بأنه حرّ، وأن بيعه يشبه بيع يوسف الصديق، فهو باطل.

ويبدو أن عدم تفطن الحارث للمكيدة المدبرة له، يعود إلى عوامل سياقية عدة، منها حاجته الماسة إلى غلام ينسيه الفتى الذي تربى في حضنه وهلك، كذلك حسن خَلق وخُلق هذا الغلام، والأفعال الكلامية التي أنجزها الشيخ أثناء عرضه لغلامه، حيث اعتمد فيها على الشرط الأساسي، مما جعل الحارث يقتنع بأنه ظفر بكنز ثمين، فنسيَ أو تناسى كل الشّوائب المحيطة بالعقد.

وعليه فإن للسياق دورا هاما في تحديد القوة الإنجازية للأفعال الكلامية، خاصة غير المباشرة منها، ذلك أنّ قوتها الحرفية تخالف قيمتها الإنجازية، كما يساهم السياق في تحديد بنية الملفوظ.

ويمكن أن نسوق الدراسة السابقة في الرسم التخطيطي الآتي:

الفعل الكلامي	نوعه	الفعل الإنجازي	الفعل التأثيري
لما اقتعدت غارب الاغتراب وأنأتني المتربة عن الأتراب	تقريري مباشر	الإخبار	
رأيت في بهرة الحلقة شخصا شخصت الخلقة	تقريري مباشر	الوصف	
أيها السادر في غلوائه	طلبي غير مباشر	اللوم و العتاب	تقديم العطاء

أتظنأنسينفعك حالك إذا آن ارتجالك؟	طلبي غير مباشر	التحذير	تقديم العطاء
وجعل يودع من يشيعه ليخفي عليه مهيعه	تقريري مباشر	الإخبار	
وجده مثاقبا لتلميذه على خبز سميذ وجدي حنيذ، وقبالتهما خابية نبيذ	تقريري مباشر	الإخبار	الدهشة
يا هذا	طلبي غير مباشر	التحقير	
جدحت له يد الإملاق	تقريري غير مباشر	الإخبار	
وطعن يقتاد القلب بأزمته	تعبيري غير مباشر	الحزن	
فدخل ذو لحية كثة و هيئة رثة.	تقريري مباشر	الوصف	الشفقة
لقد استسمنت يا هذا ذا ورم.	تقريري غير مباشر	الذم	
أين أنت من البيت النذر؟	طلبي غير مباشر	الإخبار	استحسان الجمع لقوله
فلا تثق بوميض من برقه فهو خلب	طلبي غير مباشر	النصح	
يا أخارير الذخائر، وبشائر العشائر	طلبي غير مباشر	المدح	
عموا صباحا وانعموا اصطباحا.	تعبيري مباشر	التحية	
فهل من حر أس أو سمح مؤاس؟	طلبي غير مباشر	الطلب والسؤال	الرفق
فأبرزت دينارا	التزامي غير مباشر	الوعد	
بسط يده	طلبي غير مباشر	الأمر	الوفاء بالعهد وتقديم الدينار له
هل لك أن تذمه ثم تضمه؟	طلبي غير مباشر	الالتماس	

والشرط أملك	طلبي غير مباشر	الأمر	تقديم الدينار الثاني
فناجاني قلبيبأنهأبو زيد وأن تعارجه لكيد	تقريري مباشر	الإخبار	إلغاء القيم الإنجازية السابقة
فاهجر من استغباك هجر القلى وهبه كالملحود في رمسه	طلبي غير مباشر	النصح	التعلق والارتياح وتقديم العطاء
ولا ترج الود ممن يرى أنك محتاج إلى فلسه	طلبي غير مباشر	النصح	التعلق والارتياح وتقديم العطاء
أفتأذن لي قصد قرية لأستحمم؟	طلبي مباشر	الإذن	
ستجد مطلعي عليك.	التزامي مباشر	الوعد	
لا تلووا على خضراء الدمن.	طلبي غير مباشر	النصح	
يا أهل ذا المغنى	طلبي مباشر	النداء	
وقيتم شرا	طلبي مباشر	الدعاء	الإكرام
أطرفنا بغريبة من غرائب أسمارك	طلبي مباشر	الأمر	القيام بالفعل
فاستخبرناه عن طرفة مراه	طلبي غير مباشر	الاستفهام	الإجابة
ما عندكم لابن سبيل المرمل؟	طلبي غير مباشر	الالتماس	
أثبتوها في عجائب الاتفاق	طلبي مباشر	الأمر	تدوين الحكاية
وضحك حتى تغرغرت مقلتاه بالدموع	تقريري غير مباشر	السخرية	
يا من تظنى السراب ماء	طلبي غير مباشر	التهكم	الغضب الشديد

فمهد العذر أو فسامح	طلبي غير مباشر	الاعتذار	
لقد جئتم شيئا إدا، وجرتم عن القصد جدا	تقريري غير مباشر	ذم الاختيار	
وهل للقدماء إذا أنعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة؟	تقريري غير مباشر	الإخبار	
وإذا شئت ذاك فرض نجيبا وادع مجيبا	طلبي غير مباشر	التحدي	
لا تعرض عرضك للمفاضح	طلبي غير مباشر	التحذير	
لقد استسعيت يعبوبا	تقريري غير مباشر	قبول التحدي	
فبرهن الآن عن نفسك، وإلا كشفت لبسك، وأمرت بحبسك	التزامي مباشر	التهديد	القيام بالفعل
اسمع حديثي فانه عجب	طلبي غير مباشر	الالتماس	تصديق القاضي لقوله
فارجعي إلى خدرك	إيقاعي مباشر	الحكم	عودة المرأة إلى زوجها
واصبر على كيد الزمان	طلبي غير مباشر	النصح	
فعسى الله أن يأتي بالفتح	طلبي مباشر	الترجي	
اللهم بحرمة عبادك المقربين حرم حبسي على المتأدبين	إيقاعي غير مباشر	اتخاذ القرار	
لمثل هذا: فليعمل العاملون	طلبي غير مباشر	الندب	
ما لكم لا يحزنكم دفن الأتراب	طلبي غير مباشر	اللوم والعتاب	

كلا سوف تعلمون	التزمي مباشر	التهديد والوعيد	
أما نادى بك الموت	طلبي غير مباشر	التحذير	
ستذري الدم لا الدمع	التزامي مباشر	التهديد	
فبادر أيها الغمر	طلبي مباشر	النصح	تقديم العطاء
ولا تركن إلى الدهر وإن لان	طلبي غير مباشر	النصح	تقديم العطاء
واخفض من تراقيك	طلبي غير مباشر	النصح	تقديم العطاء
وجانب صغر الخد	طلبي غير مباشر	النصح	تقديم العطاء
ونفس عن أخي البث	طلبي غير مباشر	النصح	تقديم العطاء
لمحنا عجوزا تقبل من البعد	تقريري مباشر	الإخبار	
إني من سروات القبائل	تقريري مباشر	الإخبار	
فهمنا ببراعة عباراتها وملح استعاراتها	تعبيري مباشر	الإعجاب	
إن جعلتنا من روائك لم نبخل بمواساتك	التزامي مباشر	الوعد	الإعجاب والتأثر الشديد
أشكو إلى الله اشتكاء المريض ريب الزمان المعتدي البغض	تعبيري مباشر	الشكوى	تقديم العطاء
أتح لنا اللهم من عرضه من دنس الذم نقي رحيض	طلبي غير مباشر	الدعاء	تقديم العطاء
فأماطت الجلبات ونضت النقاب	تقريري مباشر	الإخبار	الدهشة

فقل لمن لام هذا عذري فدونك عذري	تعبيري مباشر	الاعتذار	الغضب الشديد
تعاهدوا على محرمة العجائز	تعبيري مباشر	العهد	
أرقت ذات ليلة	تقريري مباشر	الإخبار	
من الطارق الآن؟	طلبي مباشر	الاستفهام	الجواب
غريب أجنه الليل	تقريري مباشر	الإخبار	
ادخلوها بسلام	طلبي غير مباشر	الترحيب	
شكر على تلبية صوته	تعبيري مباشر	الشكر	
اعتذر من الطروق في غير وقته	تعبيري مباشر	الاعتذار	
إن لبكائك سرا	طلبي غير مباشر	الاستفهام	
إنك ستجد مني طبا آسيا أو عونا مؤاسيا	التزامي غير مباشر	الوعد	
أيها العالم الفقيه	طلبي مباشر	النداء	
افتنا في قضيته	طلبي غير مباشر	الالتماس	
صر معي إلى مربعي لتظفر بما ينبغي	التزامي مباشر	الوعد	
أدخلني بيتا أحرج من التابوت	تقريري مباشر	الوصف	
فلا يحملنك الجوع الذي هو شعار الأنبياء و حلية الأولياء على أن تلحق بمن مان	طلبي غير مباشر	العتاب	
قد ملأت الجراب فأمل الجواب	طلبي مباشر	الأمر	

جبت البيد إلى زبيد	تقريري مباشر	الإخبار	
فاهتز كل منهم لمطلبي	التزامي غير مباشر	الوعد	
من يشتري مني غلاما صنعا	طلبي غير مباشر	الالتماس	الإعجاب
نقدته المبلغ في الحال	إيقاعي مباشر	عقد الصفقة	أصبح الغلام ملكا للحارث
لحاك الله هل مثلي يباع؟	طلبي غير مباشر	التوبيخ	
أما جربتني فخبرت مني نصائح لم بمازجها خداع	تقريري غير مباشر	الإثبات	بكاء المستمعين
لم أبك والله إلف نزح ولا على فوت نعيم و فرح	تقريري مباشر	الإخبار	
أما ناجتك هاتيك الملح بأنني حر وبيعي لم يبح	تقريري غير مباشر	التهكم والسحرية	الشّجار والمحاكمة
إن فيما شرحتماه لي لدليلا على أن هذا الغلام قد نبهك فما ارعويت	تقريري غير مباشر	اللوم والعتاب	
ونصح لك فما وعيت	تقريري غير مباشر	اللوم والعتاب	
فاستر داء بلهك واكتمه	طلبي غير مباشر	التوبيخ	
فإنه حر الأديم	إيقاعي غير مباشر	الحكم	حرية الغلام
أشعرت في بعض الأيام همّا	تعبيري مباشر	الحزن	

وكنت سمعت أن غشيان مجالس الذكر يسرو غواشي	تقريري مباشر	الإخبار	
فانطلقت إليه غير وان	تقريري مباشر	الإخبار	
يا أهل البصرة رعاكم الله ووقاكم	طلبي مباشر	الدعاء	
دهماؤكم أطوع رعية للسلطان	تقريري مباشر	المدح	
وعالمكم علامة كل زمان	تقريري مباشر	المدح	
ليس ألا الندم إن نفع	تعبيري مباشر	الندم	البكاء

وفيما يأتي النسبة المئوية لكل نوع من الأفعال الكلامية:

الفعل الكلامي	نسبته
الأفعال الإنجازية	100/100
الأفعال التأثيرية	.100/37
الأفعال المباشرة	100/55.5
الأفعال غير المباشرة	100/44.5
الأفعال التقريرية	100/29.3
الأفعال الطلبية	100/48.4
الأفعال التعبيرية	100/10.1
الأفعال الإيقاعية	100/4

الأفعال الالتزامية	100/9

من خلال ما سبق تبيّن لنا أن كل فعل كلامي يتضمن فعلا إنجازيا، أما الفعل التأثيري فيلازم بعضها ولا يلازم الكثير منها؛ أي أن أغلب الأفعال لا تتضمن فعلا تأثيريا.

والملاحظ غلبة الأفعال غير المباشرة على المباشرة؛ لأن هذا النوع من النصوص يعتمد على التلميح بدل التصريح ، لذلك فهي بحاجة إلى مبدإ التعاون المنعقد بين المبدع والمتلقي، ومعرفة كل ما يحيط بالعملية التخاطبية لفك شفراتها.

كذلك قلّة الأفعال التعبيرية والأفعال الإيقاعية، ولعل مرد هذا إلى طبيعة نصوص المقامات، فهي تعتمد على الوصف الإخبار والسرد والحوار، وهذه الأنماط تكثر فيها الأفعال التقريرية والأفعال الطلبية، كما أن الأفعال الإيقاعية هي أفعال قليلة الاستخدام سواء في اللغة العادية اليومية أو في اللغة الأدبية، فهي تخص صيغ العقود والمعاهدات والأحكام، وهذا الصنف من الملفوظات قليل الاستعمال مقارنة ببقية الأغراض، غير أن استعماله يغير في الواقع ويؤثر فيه.

الفصل الثالث: الحجاج في مقامات الحريري

أولا- الحجاج في الدرس التداولي

ثانيا- الحجاج عند العرب القدماء

ثالثا- السلم الحجاجي

رابعا- الروابط و العوامل الحجاجية

1- الروابط الحجاجية

2- العوامل الحجاجية

3- المبادئ الحجاجية

خامسا- الآليات البلاغية

1- الاستعارة الحجاجية

2- التشبيه

3- السجع

أولا: الحجاج في الدرس التداولي:

كان اهتمام الإنسان بالحجاج قديما، حيث امتزج بالدراسات المنطقية والبلاغية، وبالجدل والخطابة والفلسفة، فقد عدّ الإغريق البلاغة فنا للتأثير في النفوس. إلا أن فضاء البلاغة سرعان ما تلاشى بعد حلول العصر الصناعي، وهذا لأسباب عدة منها: طغيان العقلانية التي ترفض الاستدلالات الخارجة عن البرهنة. ثم عادت البلاغة والحجاج بقوة بعدما امتزجا بنظرية التواصل، ولعل أهم ما ساعد على ذلك هو التخلص من الوهم القائم على اعتبار اللغة نظاما لرسم الوقائع، فهي حسب التصور الجديدة نظام تتحول به الأقوال إلى أفعال[1].

والمقصود بالحجاج هو تقديم الحجج والأدلة اللغوية المؤدية إلى نتيجة ما، ويتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أو إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة حجج، والبعض الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها[2].

ويعدّ اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" " O.DUCROT" واضع أسس نظرية الحجاج في اللغة، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يمتلكها المتكلم من أجل تحقيق أهداف حجاجية، فهي تنطلق من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير[3]، "وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية" [4]، فاللغة تحمل وظيفة حجاجية تتجلى في بنيتها الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية.

---

[1] - ينظر، عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي، ص 170-171.
[2] - ينظر، أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 57.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 55.
[4] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 457.

وتهدف هذه النظرية إلى تبيان أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، لوجود مؤشرات كثيرة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها[1].

أما موضوع هذه النظرية فهو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية، تمثل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما".[2]

وقد مثّلت أعمال "ديكرو" و"كلود أنسكومر" تيارا تداوليا متميزا، ولعل أهم ما يميز أعمالهما رفض التصور القائم على الفصل بين الدلالة وموضوعها (معنى الجملة) ، والتداولية وموضوعها (استعمال الجملة في المقام)، هذا ما جعل البحث عندهما يكمن في الجزء التداولي المدمج في الدلالة، وموضوع البحث هو بيان الدلالة التداولية[3]، وهو ما يُطلَق عليه ب"التداولية المدمجة"، وهي "بحث في القوانين التي تحكم الخطاب داخليا لاكتشاف منطق اللغة"[4]، أو هي بحث في الجوانب التداولية المسجلة في بنية اللغة ودلالة الجملة، لاستخراج الأشكال اللغوية ذات القيمة التداولية لضبط شروط استعمالها، ولا تهتم بالقيمة الوصفية أو الإخبارية التي تصف الكون[5].

وقد انبثقت نظرية الحجاج من نظرية أفعال الكلام التي وضع أسسها "أوستن" "وسيرل"، حيث قام "ديكرو" بتطوير أعمالهما خاصة أعمال "أوستن"، فأضاف فعلين لغويين

---

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص55.
[2] - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 352.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 351.
[4] - المرجع نفسه، ص 352.
[5] - ينظر، المرجع نفسه، ص354.

وهما فعل الاقتضاء وفعل الحجاج، كما قام بإعادة تعريف مفهوم الفعل الإنجازي، إذ يرى بأنّه فعل لغوي موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية، أي مجموعة من الحقوق والواجبات، ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار [1].

لذلك أُدرج الحجاج في جملة الأفعال الكلامية، فهو عند "فان ايميرن" V. Emern و"خروتندورست" " K. DORST" عبارة عن فعل كلامي مركب، يتألف من أفعال كلامية فرعية تهدف إلى إثبات أو إبطال دعوة معينة، وقد أخذا بمبدإ "سيرل" في تحديد شروط أداء الفعل، وطبقاها على الحجة المثبتة والحجة المبطلة، فالمتكل م يوفق في أداء الحجة المثبتة إذا استوفى الشروط الآتية[2]:

أ- شرط المضمون القضوي: على المتكلم أن يأتي بمجموعة من الأحكام الجازمة التي ينطوي كل منها على قضية مخصوصة.

ب- الشرط الجوهري: يحاول فيه المتكلم إثبات الدعوة وإقناع المستمع.

ج- شرط الصدق: على المتكلم أن يعتقد صدق دعوته.

د- الشرط التمهيدي: ينبغي على المتكلم أن يعتقد سلفا أن السامع لا يسلم بدعوته، بل يسلم بالقضايا التي جاء بها لإثباتها.

---

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 56.

[2] - ينظر، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان والتكوثر العقلي ، ص262.

وتتعارض نظرية الحجاج في اللغة مع كثير من النظريات اللغوية السائدة، كالاتجاه الوصفي الذي يعتبر كل قول إثباتي هو تمثيل ووصف للواقع، كما تتعارض مع الفكر اللغوي والفلسفي القديم والحديث، الذي يرى أن وظيفة اللغة الأساسية هي الإخبار؛ وعليه يكون الجانب الإخباري والوصفي من المعنى هو الأساسي والمعاني الأخرى ثانوية، وهو ما ترفضه نظرية الحجاج فهي تعتبر الظواهر الحجاجية هي أساس وجوهر المعنى، وتنظر إلى القيمة الإخبارية نظرة دونية معتبرة إياها ثانوية، بل تابعا للمكون الحجاجي [1]، ففي قولنا: "الجو جميل"، لا ننقل للسامع خبرا لا يعرفه، وبذلك فإن العبارة تفقد طبيعتها الإخبارية، وهو ما يسمح لنا باستنتاج ما يأتي:

- الجو جميل، لنذهب في نزهة.
- الجو جميل، أخرج السيارة.

وعليه فإن هذا الملفوظ " الجو جميل" يشكل حجة تخدم نتيجة معينة.

وإذا كانت القيمة الإخبارية ثانوية في الأقوال الخبرية فإنّها تنعدم في الأساليب الإنشائية التي تخلو من الخبر، لكنها قد تؤول انطلاقا من قيمتها الحجاجية، ومثال ذلك عبارة "هل أحضرت السيارة؟"، فهي تتضمن قيمة حجاجية؛ لأنها قد تكون مرادفة لعبارة "لم تحضر السيارة"، أو "لا ينبغي أن تحضر السيارة".

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 70.71.

نستخلص من هذا أن الذي يُعتمد " في بناء الخطاب وتوالي الأقوال وتسلسل الجمل هو القيمة الحجاجية في القول، فهي التي توجه الخطاب، وتحدد المسار الذي يسير فيه"[1].

ولمعرفة الحجاج يستوجب التفريق بينه وبين البرهنة أو الاستدلال المنطقي، فالاستدلال "يقع في مجال المنطق، وقوامه ترابط القضايا التي تصف حالات الأشياء في الكون، لذلك فإن القياس مثلا لا يمثل خطابا، أما الحجاج فمجاله الخطاب نفسه الذي تسيره قوانين داخلية، تفرض استئناف القول فيه على هذا الوجه أو ذاك" [2]، فلفظة الحجاج لا تعني البرهنة أو إثبات شيء ما، ولا تتّبع طرق الاستدلال المنطقي[3]، ويمكن التمثيل لها فيما يأتي:

أ -البرهنة أو الاستدلال:

-كل جريمة يعاقب عليها القانون.

-السرقة جريمة.

-السرقة يعاقب عليها القانون.

ب- الحجاج:

-السماء صافية.

-سيكون الجو حارا هذا اليوم.

[1] - أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 78.
[2] - المرجع نفسه، ص 352.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 56.

نلاحظ في الأمثلة "أ" أنّ استنتاج السرقة يعاقب عليها القانون حتمي لأسباب منطقية، أما استنتاج ارتفاع درجة الحرارة في الأمثلة "ب" يقوم على معرفة العالم، وبذلك فهو استنتاج احتمالي، قد يتحقق، وقد لا يتحقق.

وتتسم الحجج اللغوية بعدة خصائص منها:

أ- سياقية: الحجة عنصر دلالي متضمن في القول، يقدمه المتكلم لخدمة عنصر دلالي آخر، ويلعب السياق دورا هاما في منح الحجة طبيعتها الحجاجية، فقد تكون العبارة حجة في سياق، ولا تكون كذلك في سياق آخر، حتى لو تعلق الأمر بالمحتوى القضوي نفسه، وهو ما ينطبق على النتائج أيضا ، فهي تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها الحجة، ويمكن أن نستشهد على ذلك بالبيت الشعري الشهير ، الذي هجا به الشاعر الأموي جرير الراعي النميري وقبيلته:

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

يتضمن الشطر الأول نتيجة مفادها: " غض الطرف"، وحجة تخدمها وهي: " إنك من نمير "، وقد كان لكلام جرير من القوة والسلطان ما جعل أفراد قبيلة الشاعر النميري يغضون الطرف فترة من الزمان، غير أن عبارة "أنت من نمير" لن تكون حجة دائما، فلو استخدمت في سياق آخر كالتعارف مثلا سيفقد هذا القول قوته الحجاجية، وبذلك فإن السياق هو الذي أكسبها طابعها الحجاجي[1].

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، الطبعة الأولى، 2006، ص 129-127.

ويلعب السياق دورا بارزا في تحويل الملفوظ إلى حجة، فالعبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة حسب السياق، كما يتدخل في إظهار الحجة وإضمارها، وهذا ينطبق أيضا على النتيجة، والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما، ومثال ذلك:

- الجو جميل، إذن سنذهب في نزهة.
- الجو جميل، سنذهب في نزهة.
- الجو جميل.
- سنذهب في نزهة.

فقد صُرّح بالحجة والرابط والنتيجة في المثال الأول، وأضمر الرابط في المثال الثاني، وصرح بالحجة فقط في المثال الثالث، أما النتيجة فيتم استنتاجها من خلال السياق، وفي المثال الرابع صُرّح بالنتيجة فقط.

ب–النسبية: هناك حجج قوية وأخرى ضعيفة فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى منها [1].

ج– الحجة قابلة للإبطال: إذا كان البرهان المنطقي والرياضي مطلقا وحتميا لا يقبل الإبطال، فإن الحجة اللغوية نسبية ومرنة، تقبل الإبطال، وذلك بحجة أقوى منها [2].

كما أن الحجاج عرضة للتغيّر والتحوّر، وهذا لعدة عوامل منها: تغير المقام، وتبدل ظروف المتكلم، حتى وإن ظل موضوع النقاش ذاته[3]، ويمكن توضيح ذلك فيما يأتي:

---

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 59.
[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 59.
[3] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 461.

– تحصل محمد على شهادة البكالوريا.

فهذه حجة تثبت اجتهاده.

ويمكن نقض هذه الحجة في موضع آخر، وذلك بقولنا:

– تحصل محمد على شهادة البكالوريا، التي تحصل عليها الملايين، وللحظ دور هام فيها.

وبذلك فإن الحجة عرضة للتبدل والتغير، فقد "لا تختلف الخطابات في نوع الفعل الإنجاري، أو في الوحدات المعجمية، وإنما تختلف في هدف كل من طرفي الخطاب، فتستخدم حجة واحدة من جهتين مختلفتين"[1].

ويهدف الحجاج إلى الإقناع، ولهذا الأخير مجموعة من المسوغات منها[2]:

أ– تأثيره في المرسل إليه أقوى، ونتائجه أثبت وأبقى؛ لأنه لا يشوبه فرض بالقوة.

ب– تمايزه عن الاستراتيجيات الأخرى كالإكراه، لفرض القبول دون حصول الاندفاع الداخلي.

ج– يعتبر الإقناع الهدف الأسمى لكثير من أنواع الخطابات، فالمرسل يفضل استعمال الإقناع ولو كان ذا سلطة تخوّله استعمال طرق أخرى.

د– شمولية الإقناع: فهو يمارس على جميع الأصعدة، فالحاكم يحاول الإقناع، والفلاح كذلك...، هذا ما يعزز انتماءه إلى الكفاءة التداولية للإنسان السّوي، بوصفها دليلا على مهاراته الخطابية.

هـ– تحقيق الكثير من الأهداف التربوية، فقد استخدمه الأنبياء لهداية الناس.

[1] - المرجع السابق، ص 463.
[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 446.

وكي يتمكن الحجاج من أداء وظيفته الأساسية وهي الإقناع والتأثير لابد أن يكون متكاملا، فلو نقصت حلقة في بنائه تعثرت العملية، لذلك على المخاطب أن يبني حجاجه ضمن سلسلة تسمح للمتلقي بتتبع بناء الخطاب لتقبل مواقفه، فعليه توخي الآتي: عنصر الحوارية الذي يساهم في استمرار الحجاج من البداية إلى النهاية، والتجانس وذلك بخضوعه لمقتضيات البناء اللغوي للغة المكتوبة.[1]

وعليه فإن لنظرية الحجاج في اللغة مجموعة من القواعد التي ينبغي على المتكلم إتباعها لتحقيق الهدف الأساسي له وهو الإقناع.

ثانيا- الحجاج عند العرب القدامى:

لعب الحجاج دورا هاما في الحياة العقائدية والسياسية في البيئة العربية والإسلامية، فقد كانت استراتيجية الحجاج واضحة في القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وفي الخطابات التي سبقت هذه الفترة بكثير، وذلك في المنافرات القبلية في العصر الجاهلي، ثم تنامت بعد بعثة النبي "صلى الله عليه وسلم"، وتبلورت في كثير من العلوم، مثل علوم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والعلوم اللغوية، وقد كان الإقناع مطية أطراف الخطاب في المسامرات والندوات والنقاشات، مما جعله السبيل الأقوم لإبراز مكنونات هذه العلوم والدفاع عنها[2].

[1] - ينظر، عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي الجزائري، ص 202.
[2] - ينظر،عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص447.

ويعدّ خطاب المناظرة في التراث العربي من أبرز أنواع الخطابات التي تهدف إلى الإقناع، إذ تظهر فيه سمات الكفاءات التداولية والقدرة على توظيفها حسب متطلبات السياق، فهو المطلب الأساسي في المناظرات، سواء كانت دينية، أو سياسية، أو لغوية...[1].

وقد اهتم البلاغيون بالحجاج والإقناع، ويعد الجاحظ من أبرز البلاغيين الذين حاولوا التقعيد لهذه الاستراتيجية، وذلك في كتابه "البيان والتبيين"، حيث يتنازع مفهوم البيان وظيفتان؛ الأولى إفهامية، والثانية حجاجية إقناعية، ولعل ما جعله يهتم بالحجاج انتماؤه إلى المعتزلة الذين يعرفون بالدفاع عن آرائهم ومحاولة دحض آراء خصومهم.

ويظهر اهتمام الجاحظ بالإقناع في حديثه عن البلاغة، حيث قال: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في قُواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما"[2].

فقد جمع بين العناصر اللغوية، وما يحيط بها أثناء العملية التخاطبية، مركزا على المتكلم لتحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي، وبذلك فقد تناول الجاحظ الاستراتيجية الحجاجية في كتابه البيان والتبيين، حيث ذكر الخصائص الايجابية للخطيب التي تمنح القبول لخطابه، وتتبّه إلى الخصائص السلبية للخطيب، والتي تضعّف موقفه مثل العيوب النطقية،

---

[1] - ينظر، المرجع السابق، ص449.

[2] - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 92.

والعيّ...، وبيّن ما يجب أن يتحلى به من أخلاق، ولم يغفل العلامات السيميائية ودورها الحجاجي، ولم يكتف بذلك، بل ربط مفهومي البيان والبلاغة بالإقناع ، هذا ما جعل غايته في البيان والتبيين هي الخطاب الإقناعي الشفوي[1].

كما تنبه الجاحظ في وقت مبكر إلى هذه الأبعاد التداولية، فهو "أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط"[2].

وقد جعل الوظيفة الحجاجية من وظائف البلاغة، وهو ما أورده على لسان إسحاق بن حسان بن قوهي حيث قال: "لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج"[3].

وقد أقرّ ابن خلدون بضرورة استعمال الحجاج بوصفة السبيل الأمثل لتحقيق الإقناع في عصر كثرت فيه الخلافات التي ولدت المناظرات[4].

كما تناول أبو الوليد الباجي الحجاج بالتفصيل في كتابه: "المنهاج في ترتيب الحجاج" فهو يعتبر أن الجدل أو الحجاج: "من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا؛ لأنه السبيل

---

[1] - ينظر،عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 448.

[2] – حمادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981، ص 185.

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 115-116.

[4] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 449.

إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجّة، ولا علم الصحيح من السّقيم ولا المعوجّ من المستقيم" [1]، فقد سما بالحجاج إلى أعلى الدرجات، فجعله من أعظم العلوم لما له من أهمية بالغة خاصة في عصره، فهو يعتبره سبيل الوصول إلى الحق وتجنب الباطل.

وقد وضع أبو الوليد الباجي مجموعة من الشروط التي ينبغي على المتكلم اتّباعها لبلوغ مراده المتمثّل في الإقناع، حيث قال: "لا يتكلّم على ما لم يقع له العلم به من جهته، ولا يتكلّم إلا على المقصود من كلامه، ولا يتعرّض لما لم يقصده مما جرى من خلاله، فإنّ الكلام على ما لم يقصده عدول عن الغرض المطلوب، ولا يستدلّ إلا بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته؛ لأنّه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه ويبيّن انقطاعه، ويجتهد في الاختصار، فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار"[2].

وبذلك فقد استطاع أن يقعّد للحجاج، ويضع له مجموعة من الشروط وهي: العلم، والقصد والاستدلال بالدّليل الصحيح.

ثالثا– السّلم الحجاجي : هو نظام ترتيب الحجج حسب قوتها، ويمكن توضيح ذلك فيما يأتي:

إذا أردنا أن نثبت أنّ إبراهيم مجتهد، فهذه نتيجة نرمز لها ب (ن).

---

[1] - أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي، ص 8.

[2] - المصدر نفسه، ص10.

نأتي بحجج نرمز لها ب: (أ، ب، ج) لإثبات النتيجة مثل:

أ -تحصل إبراهيم على علامة كاملة في جميع المواد.

ب-تحصل إبراهيم على علامة كاملة في المواد الأدبية.

ج- تحصل إبراهيم على علامة كاملة في مادة اللغة العربية.

فهذه الحجج يمكن تمثيلها في السلم الحجاجي وذلك كالآتي:

النتيجة (ن): إبراهيم مجتهد في دراسته.

(أ) تحصل إبراهيم على علامة كاملة في جميع المواد.

(ب) تحصل إبراهيم على علامة كاملة في المواد الأدبية.

(ج) تحصل إبراهيم على علامة كاملة في مادة اللغة العربية.

إن هذه الخطاطة تمثل سلما حجاجيا، تشكل الحجة (أ) أقوى حجة، تليها (ب)، ثم (ج)، وهي حجج تخدم النتيجة "ن"، وتكون الحجة الأقوى في أعلى درجات السلم الحجاجي، والحجة الأضعف في أدنى درجاته.

وتكمن أهمية السلالم الحجاجية أساسا في "إخراج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري، وهذا يعني أن القيمة الحجاجية لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب؛

لأنها لا تخضع لشروط الصدق المنطقي، فهي كما ذكرنا ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغوية بل مسجلة فيها يتكهّن بها التنظيم الداخلي للغة"[1].

وللسّلم الحجاجي ثلاثة قوانين وهي[2]:

1- قانون الخفض: وفحواه أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

2- قانون تبديل السّلم: وفحواه أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإنّ نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة، ومثال ذلك:

- محمد مجتهد، لقد نجح في الامتحان.
- محمد ليس مجتهدا، لم ينجح في الامتحان.

3- قانون القلب: مقتضى هذا القانون أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في السّلم الحجاجي، فإن نقيض الثاني أقوى من الأول.

ويمكن توضيح ذلك فيما يأتي:

لنفترض أنّ لدينا نتيجة مفادها: محمد كريم، فالنتيجة المضادة هي: محمد ليس كريما.

نأخذ حجتين لإثبات النتيجة الأولى:

أ- قدم كل ما لديه لضيوفه.

ب- قدم نصف ما لديه لضيوفه.

ثم نأتي بحجتين للنتيجة المضادة "محمد ليس كريما":

---

[1] -شكري المبخوت، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 370.

[2] - ينظر، طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 277. 278.

أَ- لم يقدم محمد كلّ ما لديه لضيوفه.

بَ- لم يقدم محمد نصف ما لديه لضيوفه.

ويمكن التمثل للنتيجة والنتيجة المضادة في السلّمين الحجاجيين الآتيين:

السّلم الحجاجي "1"

النتيجة "ن" محمد كريم

↑ (أ) قدم كل ما لديه لضيوفه

(ب) قدم نصف ما لديه لضيوفه

السّلم الحجاجي "2"

النتيجة المضادة "لا-ن": محمد ليس كريما.

↑ (بَ) لم يقدم محمد نصف ما لديه لضيوفه

(أَ) لم يقدم محمد كل ما لديه لضيوفه

فالحجة (أ) في السّلم الحجاجي الأول أقوى من الحجة (ب) في السّلم نفسه، أما الحجة (بَ) في السّلم الحجاجي الثاني فهي أقوى من الحجة (أَ) في السلم نفسه، حيث تمثل (أَ) الحجة المنفية للحجة (أ)، وتمثل الحجة (بَ) نفي الحجة (ب).

وتزخر المدونة باللغة الحجاجية، إذ نلمس في معظم عباراتها بعدا حجاجيا يحاول من خلاله المتكلم إقناع المتلقي، ويمكن تطبيق قانون السّلم الحجاجي على بعض نماذجها خاصة تلك الحجج التي تتدرج حسب القوة الحجاجية للملفوظ، منها قول أبي زيد طالبا العفو من الحارث الذي غضب منه غضبا شديدا بعدما خدعه وأخذ أمواله: من مشطور الرجز

أقْصِــرْ فما أنا فيهِ بـدْ عـاً مثلَمـا تتــوَهّــمُ

قد باعَــتِ الأسْباطُ قبْ لي يوسُـــفاً وهُمُ هُـمُ

هـــذا وأُقسِـــــمُ بالتي يَسْـري إلَيْها المُتْهِـمُ

والطّائِفــينَ بها وهُـــمْ شُعـثُ النّواصي سُهَّمُ

ما قُمْــتُ ذاكَ الموْقِفَ المُخْزي وعِنْدي دِرْهَمُ [1]

تضم هذه الأبيات الشعرية حجتين تخدمان نتيجة ضمنية من قبيل: "طلب العفو"؛ يبيّن المتكلم في الحجّة الأولى أنّه ليس الأول من قام بمثل هذه الخديعة، فقد باع إخوة يوسف الصّديق قبله أخاهم وهم أنبياء، ولم تتدنى منزلتهم، وبذلك فإنّ ما قام به أبو زيد شيء عادي لا يستحق كل هذا الغضب. أما الحجة الثانية ففحواها أن المتكلم كان معدما، ولم يكن لديه فلس واحد يسدّ به حاجاته، لذلك لجأ إلى الحيلة كي يظفر بما يبتغي، فكانت الوسيلة الوحيد لذلك، فلو لم يكن على هذه الحالة لما فعل ذلك، وقد استعان بالقسم كي يدعم حجته ويقويها.

[1] - مقامات الحريري، 370-371.

وبذلك فإنّ الحجتين لهما التوجه الحجاجي نفسه، إذ نقول عن قولين أنهما ينتميان إلى باب حجاجي واحد يحدده قول "ن" إذا كان المتكلم يعتبر أن "ق 1" و"ق2" بمثابة حجج لفائدة "ن"، فإذا انتمى قولان أو أكثر إلى باب حجاجي واحد فهذا يعني أنهما يخدمان نتيجة واحدة ويمثلان اختيار متكلم واحد[1].

والملاحظ أنّ الحجة الثّانية أقوى من الأولى؛ لأن الإنسان المخدوع لا يهمه كثيرا إن كانت الخدعة جديدة مبتدعة أو متوارثة، وهو عكس الحجة الثانية فقد يسامح ويعفو على المحتال إذا علم أنّه قام بفعلته نتيجة لظروف قاهرة.

وعليه فإنّ هاتين الحجتين لهما نفس التوجه الحجاجي، إذ تتضافران لخدمة نتيجة واحدة لوجود علاقة تربط بينهما، كما أنهما تمتازان بالتدرج حسب القوة والضعف، وبذلك فإن اللغة تعتبر ذات خاصية تدرجية إذا اقتضى وصفها عنصرا له ارتباط مع عنصر آخر على الأقل، مع وجود علاقة استلزام بينهما، فتشكل هذه العناصر المتعالقة سلّما[2].

ويمكن توضيح ذلك في السّلم الحجاجي الآتي:

النتيجة "ن" طلب العفو.

(ح2)ما قُمْتُ ذاكَ الموْقِفَ ال مُخْزي وعِنْدي دِرْهَمُ

(ح1) أقْصِرْ فما أنا فيهِ بِدْ عاً مثلَما تتوَهّمُ

[1] ينظر، جاك موشلر- آن روبول ، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 298.

[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 293.

حيث تمثل "ح1" الحجة الأولى، و"ح2" الحجة الثانية، و"ن" النتيجة.

والملاحظ أنّ الحجة الثانية وردت في أعلى درجات السلم الحجاجي؛ لأنها الأقوى، وبذلك فإن السلم الحجاجي يرتكز على التدرج في القوة الحجاجية للملفوظات، كما نلاحظ أيضا غلبة القيمة الحجاجية على القيمة الإخبارية لهذه الأقوال، إذ لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وعليه فإنّ السّلم الحجاجي يبيّن "أن المحاجة ليست مطلقة إذ لا تتحدد بالمحتوى الخبري للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون، وإنّما هي رهينة اختيار هذه الحجّة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محددة، لذلك فالحكم على المحاجة أساسه القوة والضّعف اعتبارا لطابع التدرّج فيها لا الصدق والكذب"[1].

وإذا قمنا بنفي هاتين الحجتين نحصل على حجتين تخدمان النتيجة المضادة "لا-ن" وهما:

1- (ن ح1): أنا من ابتدع ما تتوَهّمُ.

2- (ن ح2): قُمْتُ بذاكَ الموْقِفَ المُخْزي وعِنْدي دِرْهَمُ.

حيث "ن ح" تعني نفي الحجة.

وتساق في السّلم الحجاجي الآتي:

النتيجة "لا-ن"

(ن ح1) أنا من ابتدع ما تتوَهّمُ.

(ن ح2) قُمْتُ بذاكَ الموْقِفَ المُخْزي وعِنْدي دِرْهَمُ

[1] - شكري المبخوت، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ، ص 370.

رابعا- الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية:

اهتم "ديكرو" بالروابط الحجاجية لما لها من دور بارز في الخطاب، فهي تساعد على فهمه وتأويله، وقد "أدت أعماله إلى شيوع الروابط التداولية في علم الدلالة، وفي التداولية أساسا"[1]، حيث اقترح وصفا بديلا للوصف التقليدي لهذه الأدوات والروابط، حيث أضاف إليها المكون الحجاجي أو الوظيفة الحجاجية، فكلمة "حتى" مثلا لا يقتصر دورها على إضافة معلومة للقول، بل إدراج حجة جديدة أقوى من سابقتها[2].

وبذلك فإن نظرية الحجاج في اللغة تعتبر الروابط الحجاجية من الآليات اللغوية التي تحمل قوة حجاجية، حيث يعمد إليها المتكلم قصد إقناع المخاطب والتأثير فيه، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أنّ بنية اللغة تتضمن قيمة حجاجية، وعليه فإنّ ا لروابط والعوامل الحجاجية هي "المؤشر الأساسي والبارز، وهي الدليل القاطع على أن الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها"[3].

ويرى كل من (ديكرو) و(أنسكومبر) أن "الجملة (أي المستوى الإعرابي والمعجمي) تتضمن وجهة حجاجية تحدد معناها قبل أي استعمال لها، ولكن القول (أي استعمال الجملة في المقام) يفرض ضربا من النتائج دون غيرها، وهذا يستلزم أن القول لا يصلح لأن يكون حجة لهذه النتيجة أو تلك إلا بموجب الوجهة الحجاجية المسجلة فيه، ومأتى هذه الوجهة الحجاجية هو المكونات اللغوية المختلفة للجملة التي تحدد معناها وتضيّق أو توسّع من

[1] - آن روبول - وجاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص169.
[2] - ينظر، الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، ص 20.
[3] - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 55.

احتمالاتها الحجاجية وهذه المكونات اللغوية هي التي تحدد طرق الربط بين النتيجة وحجّتها"[1].

وينبغي التمييز بين نوعين من المؤشرات الحجاجية: الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية؛ فالروابط تربط بين قولين، أو بين حجتين أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا، منها: بل، لكن، لاسيما، إذن، بما أن، إذا...

وتنقسم إلى[2]:

أ- الروابط المدرجة للحجج مثل: حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن...

ب- الروابط المدرجة للنتائج مثل: إذن، لهذا، وبالتالي...

ج- روابط التعارض الحجاجي من قبيل: بل، لكن، مع ذلك...

أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، بل تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما، من قبيل: ربما تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما، إلا...، وكل أدوات القصر[3].

ولتوضيح مفهوم العامل الحجاجي يمكن أن نسوق المثال الآتي:

1- طالعت كتابا.

2- ما طالعت إلا كتابا.

---

[1] - شكري المبخوت، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 375.
[2] -ينظر، أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 65-66.
[3] - ينظر المرجع نفسه، ص 64.

فالملاحظ في المثال الأول أنّه لديه قيم حجاجية متنوعة تعرف حسب السياق، مثل كثرة المطالعة، والاجتهاد، وقد تكون عكس ذلك، أما المثال الثاني فهو يحمل قيمة حجاجية واحدة وهي قلة المطالعة، كما أنّ قيمته الإخبارية لم تتغير، لكن القيمة الحجاجية تغيّرت وتأثّرت.

وبالعودة إلى مقامات الحريري نجد أنّها مليئة بالروابط والعوامل الحجاجية، لذلك سنقتصر على بعض نماذجها.

1- الروابط الحجاجية:

أ- الرابط "حتى": تعدّ "حتى" من أهم الروابط الحجاجية التي تربط بين الحجج، أو بين الحجج والنتائج، ومن نماذجها في المدونة: " **فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ، وكادَ يتميّزُ منَ الغيْظِ، ولمْ يزَلْ يحَمْلِقُ إليّ، حتّى خِفْتُ أن يسطُوَ عليّ**"[1].

يتكون هذا القول من مجموعة من الحجج التي تنتمي إلى باب حجاجي واحد؛ لأنها حجج لفائدة نتيجة ضمنية من قبيل: تبيان شدة غضب أبي زيد من الحارث، وهذه الحجج هي:

الحجة الأولى: أطلق صوتا يعبر عن غضبه.

الحجة الثانية: تبدّل ملامحه من شدّة الغضب.

الحجة الثالثة: تعدى غضبه إلى غيره عن طريق النظر.

الحجة الرابعة: خوف الطرف الأخر منه.

---

[1] - مقامات الحريري، ص 22.

وقد جاء الرابط "حتى" ليزيد في قوة الحجّة الأخير ة التي أتت بعده، والمتمثلة في خوف الطرف الآخر منه، وهي الحجة الأقوى في هذه المجموعة، وقد كانت آخر حجة يمكن تقديمها لصالح النتيجة المقصودة، وبذلك فإنّ هذه الحجج جاءت متدرجة حسب القوة والضّعف، وعليه فإن الرابط "حتى" يفرض قيودا على الكيفية التي تُعتمد في تقديم الحجج، ويحدد التوجه الحجاجي العام لها، ويمكن تمثيلها في السّلم الحجاجي الآتي:

النتيجة "ن" شدة غضب الرجل

(ح4) خِفْتُ أن يسطُوَ عليّ"

(ح3) ولمْ يزَلْ يحَمْلِقُ إليّ

(ح2) وكادَ يتميّزُ منَ الغيْظِ

(ح1) فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظ

وبذلك فإنّ الحجج المربوطة بهذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، أي تخدم نتيجة واحدة، وتكون الحجة التي ترد بعد "حتى" هي الأقوى، وهو ما يقصده النحاة بقولهم: "أن يكون ما بعدها غاية لما قبلها..."، كما أن القول الذي يتضمن الرابط "حتى" لا يقبل الإبطال والتعارض الحجاجي، ولهذا فإن جملة من قبيل:

-هذا الشيخ نبذه أصدقاؤه وأقاربه، حتى أولاده، ولكنه يتمتع بمعنويات عالية .

هي جملة لاحنة، وإذا حذفنا "حتى" زال اللحن[1].

كما يظهر دور الرابط الحجاجي "حتى" في قول الحارث بن همام: **"فرافَقْتُ صَحْباً قد شَقّوا عَصا الشِّقاقِ، وارْتَضَعوا أفاوِيقَ الوِفاقِ، حتى لاحُوا كأسْنانِ المُشْطِ في الاستِواء وكالنّفْسِ الواحِدَةِ في التِئامِ الأهْواء، وكُنّا مع ذلِك نسيرُ النّجاء، ولا نرْحَلُ إلا كُلّ هَوْجاء"**[2].

إن هذا الملفوظ يتضمن مجموعة من الحجج التي لها التوجه الحجاجي نفسه، فهي تخدم نتيجة واحدة مفادها: اتحاد أفراد الجماعة وتماسكهم، أما الحجج فهي:

الحجة الأولى: اجتناب الجماعة للخلاف وكل ما يفرق بينهم.

الحجة الثانية: اتفاق الجماعة في كل أمر.

الحجة الثالثة والأخيرة: أصبحوا من شدة الاتفاق كأسنان المشط.

يتمثل دور الرابط "حتى" في قوة الحجة التي جاءت بعده، فهي أقوى من سابقاتها، ويمكن توضيح ذلك في السلم الحجاجي الآتي:

النتيجة"ن" تماسك الجماعة.

↑ (ح3) لاحُوا كأسْنانِ المُشْطِ في الاستِواء

(ح2) ارْتَضَعوا أفاوِيقَ الوِفاقِ

(ح1) قد شَقّوا عَصا الشِّقاقِ

[1] - ينظر أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 73.

[2] - مقامات الحريري، ص 39-40.

وفي قول الحارث: " **فنظَرَ إليّ نظْرَةَ الخادِعِ إلى المَخْدوعِ، وضحِكَ حتى تغَرْغَرَتْ مُقلَتاهُ بالدّموعِ**"[1]، ربط الرابط "حتى" بين مجموعة من الحجج التي تخدم نتيجة ضمنية من قبيل: خداع أبي زيد له، وقد رتّبت الحجج حسب قوتها وذلك كالآتي:

الحجة الأولى: تكمن في النظرة الخادعة.

الحجة الثانية: تتمثل في الضحك.

الحجة الثالثة: تغرغر عينيه بالدموع.

والملاحظ أن الحجة الأخيرة وهي التي جاءت بعد الرابط "حتى" هي أقوى حجة تخدم النتيجة المرادة وهي الخداع؛ لأنه لم يكتف بالضحك فقط بل ضحك حتى تغرغرت عيناه بالدموع، فيكون في هذه الحالة في أعلى درجات السلم الحجاجي.

والمعلوم أن الضحك هو تعبير عن الفرحة، إلا أنّه في هذا الموضع يخدم النتيجة المقصودة وهي الخداع؛ لأن السياق يفرض ذلك. وعليه فإن السياق يحدد القصد والقوة الحجاجية للملفوظ.

وقد ترد "حتى" للتعليل، فيكون ما قبلها علّة لما بعدها، أي مرادفة ل"كي"، ومن أمثلتها في المدونة: "**ونَتحاذَى في الفِعالِ حذْوَ النّعالِ، حتى نأَنَ التّغابُنَ**" [2]، فقد ربطت بين الحجج والنتيجة، حيث قدم المتكلم الحجة "ونَتحاذَى في الفِعالِ حذْوَ النّعالِ" باعتبارها الشرط الوحيد للوصول إلى النتيجة المقصودة.

---

[1] - المصدر السابق، ص 55.

[2] - المصدر نفسه، ص 42-43.

ب- الرابط لكن: تستعمل الأداة لكن للحجاج والإبطال، فالتلفظ بأقوال من نمط ("أ" لكن "ب") يستلزم أمرين وهما:[1]

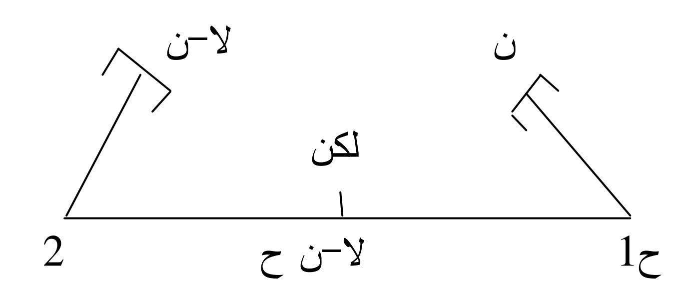
1- تشكّل كل من "أ" و "ب" حجتين؛ الأولى موجهة نحو النتيجة "ن"، والثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها التي نرمز لها ب: "لا-ن".

ب - تعتبر الحجة الثانية أقوى من الأولى، فهي التي توجه الخطاب برمته.

وقد وضع ديكرو قاعدة ل "لكن" مفادها: إذا كانت "ق" تخدم النتيجة "ن"، و"ك" تخدم النتيجة "لا-ن" فإن "ق لكن ك" تؤدي حتما إلى "لا-ن" حيث "ق" و"ك" حجتان، فالاستدراك ب "لكن" يوجّه دلالة القول إلى النتيجة المضادة[2].

ويظهر دور الرابط الحجاجي "لكن" في قول الحارث : "**وأفَقْتُ ولكِنْ حينَ فاتَ الوقتُ**"[3]، فهذا الملفوظ يتضمن عبارتين الأولى في قوله: "وأفقت"، تشكل حجة تخدم النتيجة "ن" المتمثلة في اكتشاف الحارث للمكيدة المدبرة له، أما العبارة التي تلت الرابط لكن وهي: "فاتَ الوقتُ" فهي حجة أقوى من الحجة الأولى، وتخدم النتيجة المضادة "لا-ن" من قبيل: غفلة وبله الحارث ووقوعه في شرك أبي زيد، فقد غيرت هذه الحجة وجهة الخطاب برمته، إذ أن هناك تعارض حجاجي بين الحجة التي سبقت الرابط "لكن" والحجة التي جاءت بعده، وبذلك فإن القول سيتوجه نحو النتيجة "لا-ن"، والشكل التالي يمثل ذلك:

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 58.
[2] - ينظر، شكري المبخوت، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 355.
[3] - مقامات الحريري، ص 369.



حيث (ح1) و (ح2) يشيران إلى الحجج، والرمز ⊏—— يشير إلى العلاقة الحجاجية التي تختلف عن علاقة الاستلزام المنطقي الذي يرمز له ب: ←——

وقد تستخدم "لكن" للإبطال، فتكون الحجة التي تليها لا تعارض سابقتها، ومثال ذلك قول أبي زيد[1]: من المتقارب

تعارَجْتُ لا رَغبَةً في العرَجْ ولكِنْ لأقْرَعَ بابَ الفرَجْ

يتضمن هذا البيت الشعري حجتين يربط بينهما الرابط "لكن"، يشكل الشطر الأول حجة مفادها عدم الرغبة في العرج، أما الشطر الثاني فيضم حجة تبيّن سبب عرجه، وعليه فإن الحجتين تخدمان نتيجة واحدة.

والملاحظ هنا أنّه لا يوجد بين الحجتين تعارض حجاجي، فهما يشتملان على تعارض لكنه غير حجاجي، وبذلك فإن "لكن" هنا إبطالية، وهذه الأداة بنوعيها الحجاجية والإبطالية تعبر دائما عن معنى التعارض والتنافي بين ما قبلها وما بعدها[2].

[1] - المصدر السابق، ص 38.
[2] - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 60.

وقد اقترن الواو ب "لكن" في هذا المثال، فالواو رابط نحوي يعطف بين ملفوظين، أما لكن فتقوم بإنجاز الربط التداولي الحجاجي، وفي حالة تجرد "لكن" من الواو فإنها تقوم بالوظيفتين معا[1].

ج- الرابط بل : يستعمل هذا الرابط للحجاج والإبطال مثل "لكن"، وتكمن حجاجيته في أن "المرسل يرتب به الحجج في السلم، بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة؛ لأن بعضها منفي وبعضها مثبت"[2]، غير أن استخدام الرابط "بل" لجملتين مثبتتين يجعل الحجاج يسير في اتجاه حجاجي واحد، أما الإضراب ب"لكن" فهو يؤلف بين حجتين من سلمين حجاجيين مختلفين[3].

ويظهر الدور الحجاجي للرابط "بل" في قول الحارث: " **تأمّلتُهُ فإذا هوَ أبو زيْدٍ فقُلْتُ لصَحْبي: ليُهْنَأْكُمُ الضّيفُ الوارِدُ، بلِ المَغْنَمُ البارِدُ**" [4]، ربط الرابط "بل" بين حجتين تخدمان نتيجة واحدة وهي خفة ظل الضيف، أما الحجج فهي:

-الحجة الأولى: ليُهْنَأْكُمُ الضّيفُ الوارِدُ

-الحجة الثانية: المَغْنَمُ البارِدُ

والملاحظ أن الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى، ويمكن توضيح ذلك في السلم الحجاجي الآتي:

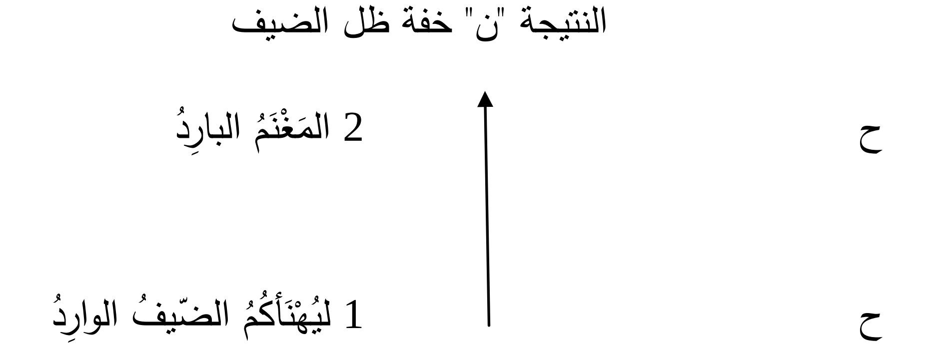
---

[1] - ينظر، المرجع السابق، ص 67.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 514.

[3] - ينظر، شكري المبخوت، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،ص 367.

[4] - مقامات الحريري، ص 49-50.



وعليه فإن الحجة التي ترد بعد الرابط "بل" هي أقوى حجة في الملفوظ.

كما يظهر دور الرابط الحجاجي "بل" في قول الشيخ: من الطويل

وإيّاكَ والشّكوى فلمْ ترَ ذا نُهًى　　　شكا بل أخو الجهل الذي ما ارعوى عوى[1]

فهذا البيت الشعري يتكون من نتيجة تتمثل في التحذير من الشكوى وحجتين يربط بينهما الرابط "بل"، وهما:

-الحجة الأولى: فلمْ ترَ ذا نُهًى شكا.

-الحجة الثانية: أخو الجهل الذي ما ارعوى عوى.

فالحجة الأولى تخدم النتيجة المذكورة سابقا؛ لأن أصحاب العقول يضرب بهم المثل في الأخلاق والمعاملة، كذلك الحجة التي جاءت بعد الرابط الحجاجي تخدم النتيجة نفسها، وبذلك فإن الرابط "بل" ربط بين حجتين تكملان بعضهما، والملاحظ أن الحجة الثانية أقوى من الأولى، والسلم الحجاجي الآتي يوضح ذلك:

[1] - المصدر السابق، ص 517.

النتيجة ن" إيّاكَ والشّكوى

(ح 2) أخو الجهل الذي ما ارعوى عوى

(ح 1) فلمْ ترَ ذا نُهًى شكا

وحري بالبيان أنّ الحجج المربوطة بالرابط "بل" يُشترط التصريح بها، فلا يمكن إظهار بعضها وإضمار بعضها الآخر[1]، وهذا ما يفسر لحن العبارة الآتية:

- وإيّاكَ والشّكوى، بل أخو الجهل الذي ما ارعوى عوى.

د- الرابط لأن: تعدّ "لأن" من ألفاظ التعليل التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي وبناء حججه.

ومن أمثلتها في المدونة: من المتقارب

لَجَوْبُ البِلادِ معَ المَتْرَبَهْ أَحَبُّ إليّ منَ المرْتَبَهْ

لأنّ الوُلاةَ لهُـــــمْ نَبــوَةٌ ومعْتَبَةٌ يا لَها مَعْتَبَهْ [2]

فقد ربطت "لأن" بين النتيجة والحجة وهما:

- النتيجة: لَجَوْبُ البِلادِ معَ المَتْرَبَهْ أَحَبُّ إليّ منَ المرْتَبَهْ

- الحجة: لأنّ الوُلاةَ لهُمْ نَبوَةٌ ومعْتَبَةٌ يا لَها مَعْتَبَهْ

[1] - ينظر أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 91.
[2] - مقامات الحريري، ص 67.

فعندما أعجب الوالي بعلم أبي زيد طلب منه العمل معه، وهو عرض مغر خاصة لأبي زيد المعروف بتجواله ومعاناته، إلا أنّ هذا الأخير رفض طلب الوالي، فحار الحاضرون، وطلبوا منه إقناعهم، فأتى بهذه الحجة التي استطاع من خلالها بلوغ مراده.

2- العوامل الحجاجية: لا تربط العوامل الحجاجية بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، بل تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما، ومنها: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما، إلا...، وكل أدوات القصر[1].

وتزخر مقامات الحريري بالعوامل الحجاجية، لعل أبرزها:

أ- **العامل "ما...إلا"**: وهو من التراكيب التي تترتب فيها الحجج حسب درجتها الحجاجية، حيث تترتب في سلم حجاجي واحد، فهو عامل يوجه القول وجهة واحدة نحو الانخفاض، وهو ما يستثمره المرسل عادة لإقناع المرسل إليه[2]، ويكون وفق الشكل الآتي:

أداة النفي"ما"← نتيجة ← أداة استثناء "إلا" ← حجة

ويقوم العامل الحجاجي "ما...إلا" بحصر الإمكانيات الحجاجية للملفوظ، وهو ما يتبين في قول الجرجاني: "اعلم أنك إذا قلت: ما جاءني إلا زيد، احتمل أمرين؛ أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجيء، وأن تنفيه عمن عداه، وأن يكون كلاما تقوله لا لأن بالمخاطب حاجة إلى أن تعلم أن زيدا قد جاءك ولكن لأن به حاجة إلى أن يعلم أنه لم يجئ

[1] - ينظر، ابو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 64.
[2] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 519-520.

إليك غيره، والثاني أن تريد الذي ذكرناه في "إنما" ويكون كلاما تقوله ليعلم أن الجائي زيد لا غيره"[1].

وقد قام العامل الحجاجي "ما...إلا" بحصر الإمكانات الحجاجية لبعض الملفوظات في المدونة منها قول أبي زيد: "**وما ضنّ إلا غَبينٌ***، **ولا غُبِنَ إلا ضَنينٌ، ولا خزَنَ إلا شَقيٌ**"[2]

يبين القول أن المتكلم والمخاطب في سياق تحاور، ويتضمن مجموعة من الحجج كل حجة تخدم نتيجة خاصة بها، وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

أداة النفي ←——— النتيجة ←——— أداة الاستثناء "إلا" ←——— الحجة

ما ←——————— ضنّ ←——————— إلا ←——————— غبين

لا ←——————— غبن ←——————— إلا ←——————— ضنين

لا ←——————— خزن ←——————— إلا ←——————— شقي

فالمتكلم يحاول إقناع المخاطب بأن البخل ينحصر في الغبن، والغبن ينحصر في البخل، والشّقاء ينحصر في تخزين الأموال دون سواه، وعليه فإن الكلمات: "غبين، ضنين، شقي" شكلت حججا للنتائج: "ضنّ، غبن، خزن" على الترتيب.

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 334-335.

*- أي بخل والضنة بالكسر البخل والغبن محركة ضعف الرأي ورجل غبين ضعيف والغبن بالسكون الخسران في البيع.

[2] - مقامات الحريري، ص 62.

والملاحظ أن القيمة الخبرية لم تتغير بوجود هذا العامل الحجاجي، فلو قال "يضن الغبين"، لكان المعنى الخبري نفسه، لكن القيمة الحجاجية تبدلت وتغيرت بدخول العامل الحجاجي "ما إلا" أو "لا إلا"؛ لأنّه قام بحصر الإمكانيات الحجاجية للملفوظ.

وقد تطرق القدماء إلى دور هذا العامل الحجاجي في التأكيد والإثبات، وفي هذا يقول الجرجاني: "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و"إن هو إلا كذا" فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت "ما هو إلا مصيب" أو "ما هو إلا مخطئ"، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت، وإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت: "ما هو إلا زيد"، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيدا" [1]، فقد بين الجرجاني أن الوظيفة الأساسية لهذا العامل هي الوظيفة الحجاجية لا الإخبارية.

ب- العامل إنّما: يعد العامل "إنما" من أبرز العوامل الحجاجية التي تحصر الإمكانات الحجاجية للملفوظ.

ومن أمثلتها في المدونة: "**تبّاً لمُفتَخِرٍ بعَظْمٍ نخِرٍ، إنّما الفخْرُ بالتُّقى والأدَبِ المُنتَقى**"[2].

يبدو جليا أن المتكلم في سياق تحاور وجدال، فقد حصر الفخر في التّقى والأدب المنتقى دون سواه، وهي الحجة التي أتى بها ليثبت أن الفخر لا يكون بعظم بال.

ويظهر دور الرابط الحجاجي "إنّما" في توجيه الملفوظ نحو وجهة حجاجية واحدة دون سواها فقد قام بحصر الإمكانات الحجاجية في التّقى والأدب، وأبعد جميع الحجج المتعلقة بالفخر، وعليه فإن دور العامل إنما" يقتصر على الحجاج لا الإخبار، وهو ما تنبّه

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 332.
[2] - مقامات الحريري، ص 252.

إليه العرب القدامى، حيث يقول الجرجاني: " اعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنّك تقول للرجل: "إنّما هو أخوك" و"إنّما هو صاحبك القديم" لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب"[1].

فهو يبين أن "إنما" لا تأتي لإعطاء معلومات أو خبر يجهله المخاطب، وبذلك فهي تفقد قيمتها الإخبارية، غير أنّها تزيد في القوة الحجاجية للملفوظ، وهو ما يؤكده السكاكي بقوله: "وترى أئمة النحو يقولون: إن" تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواها، ويذكرون لذلك وجها لطيفا يسند إلى علي بن عيسى الربعي، وأنه كان من أكابر أئمة النحو ببغداد، وهو: أن كلمة "أن" لما كانت لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثم اتصلت بها "ما" المؤكدة لا النافية، على ما يظنه من لا وقوف له بعلم النحو، ضاعف تأكيدها، فناسب أن يضمن معنى القصر؛ لأن قصر الصفة على الموصوف، وبالعكس، ليس إلا تأكيدا للحكم على تأكيد"[2].

يبيّن السكاكي بأن لهذا الرابط دورا فعّالا في زيادة القوة الحجاجية للملفوظ الذي جعلته "إنما" ضربا إنكاريا، حيث أُكد ب"إنّ" و"ما" التي استخدمت في هذا الموضع للتأكيد.

ويظهر جليا أن هذا العامل يعمل عمل "ما إلا"، فلو استُبدل به لما تغيرت القيمة الحجاجية للملفوظ، حيث يمكن أن نقول:

1 ما الفخر إلا بالتقى والأدب المنتقى.

---

[1] - عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 330.
[2] - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 403.

وهو ما يراه السكاكي حيث يقول: "نزل القيد الأخير من الكلام الواقع بعد "إنما" منزلة المستثنى، فقدر نحو: إنما يضرب زيد، تقدير: ما يضرب إلا زيد....ولا تجوز معه من التقديم والتأخير ما جوزته مع "ما" و"إلا"، ولا تقسه في ذلك عليه، فذاك أصل في باب القصر وهذا كالفرع عليه" [1]، ويقول أيضا: ""والسبب في إفادة "إنما" معنى القصر، هو تضمينه معنى: "ما وإلا"" [2].

3- المبادئ الحجاجية: لا تكتفي سلامة العملية الحجاجية بوجود الروابط والعوامل الحجاجية، فلابد من وجود قاعدة تضمن الربط بين الحجة والنتيجة، وهو ما يعرف بالمبادئ الحجاجية، وهي "مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها" [3]، فالكسل يؤدي إلى الفشل، والتعب يستدعي الراحة، والغلو يهلك صاحبه... فهي تقابل مسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري أو الرياضي. ولهذه المبادئ مجموعة من الخصائص أهمها:

أ -تمثل مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل المجتمع.

ب- العمومية: فهي تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة.

ج- التدرجية: فهي تقيم علاقة بين محمولين تدرجيين أو بين سلّمين حجاجيين، مثل: العمل والنجاح.

[1] - المصدر السابق، ص 411-412.
[2] - المصدر نفسه، ص 402.
[3] - أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 67.

د- النسبية: قد يكون المبدأ الحجاجي صالحا في سياق ما، غير أنّه يمكن إبطاله في موضع غير ملائم، أو بمبدإ حجاجي مناقض [1]، فالتواضع شيء مطلوب، إلا أنه قد يضر بصاحبه في بعض المواضع، أو إذا زاد عن حده.

وسنحاول تطبيق هذه المبادئ الحجَّاجية على بعض الحجج في مقامات الحريري، ففي قول الغلام مخاطبا سيده الذي باعه بأبخس الأثمان: من الوافر

لَحاكَ اللهُ هلْ مِثْلي يُبـــــاعُ لكَيْما تشبَـــعَ الكَرِشُ الجِياعُ

وهلْ في شِرْعَةِ الإنْصافِ أنــي أكلَّفُ خُطّـــــةً لا تُستَطـــاعُ

وأنْ أُبْلــــى برَوْعٍ بعـدَ روعٍ ومثلي حينَ يُبْلـى لا يـــُراعُ

أمَا جرّبْتَنــي فخَبَرْتَ منـــــي نصائِحَ لمْ يُمازِجْـها خِـــداعُ

وكمْ أرْصَدْتَني شرَكـــاً لصَيـدٍ فعـُدْتُ وفي حَبائِليَ السّبـاعُ

ونُطْتَ بيَ المصاعِبَ فاسْتَقادَتْ مُطـاوِعَةً وكـانَ بها امتِناعُ

وأيُّ كريهَةٍ لم أُبْلِ فيــــها وغُنْمٍ لمْ يكُنْ لي فيهِ بـــاعُ

وما أبدَتْ لي الأيامُ جُرْمــــاً فيُكشَفَ في مُصارَمَتي القِنـاعُ

ولم تعثُرْ بحمدِ اللهِ منــــي علـــى عيْبٍ يكتَّمُ أو يُذاعُ[2]

تتكون هذه الأبيات الشعرية من نتيجة، ومجموعة من الحجج التي تخدمها، والملاحظ أنّ النتيجة سبقت الحجج، وفحواها اللوم والعتاب ، فالمتكلم يلقي جام غضبه على سيده الذي

[1] - ينظر، المرجع السابق، ص66.

[2] - مقامات الحريري، ص 364-365.

باعه؛ لأن مثله لا يباع ، وقد جاء بمجموعة من الحجج التي تثبت إخلاصه وأخلاقه العالية وهي:

- الحجة الأولى: النصائح التي لا يمازجها مكر ولا حيلة.
- الحجة الثانية: قدرته على التخلص من المآزق التي أعدّها له سيده.
- الحجة الثالثة: قدرته على التغلّب على الشّدائد.
- الحجة الرابعة: شجاعته في المعارك والحروب.
- الحجة الخامسة: خلوه من العيوب.

إن لهذه العملية الحجاجية مجموعة من المبادئ وهي:

أ- تمثل مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل المجتمع، فالنصح مطلوب لدى أفراد كل المجتمعات مهما كانت الاختلافات بينهم، وحسن التخلص من المآزق محبوب، فلا نجد من ينكر هذه الصفة النبيلة، وبذلك فالكلّ يتفق عليها مهما اختلفت أجناسهم وأزمانهم،

كما أن الشجاعة في الحروب من صفات العظماء، إذ يكفي للإنسان شرفا أن يشارك في الحروب، فالناس يتفاخرون بخوضها، وبذلك فإنّ الإنسان الذي يُعاب هو الذي يتهرب منها، فيوصف بالجبن أو الخيانة، وعليه فإن هذه الحجة تمثل فكرا مشتركا بين جميع أفراد المجتمع، وإذا أضفنا لها الشق الثاني منها المتمثل في زهده وعدم طمعه في الغنائم فإنها تزداد قوة، ويعظم هذا الغلام في عين المرسل إليه. وقد بيّن في البيت الأخير أنه خال من

العيوب، وهي أقوى الحجج على الإطلاق، وهذه الصفة أيضا يتفق عليها أفراد المجتمع الواحد عبر جميع الأزمنة.

وبذلك فإنّ جميع الحجج الواردة في هذا النص تمثّل أفكارا عالمية يتفق عليها جميع الأفراد مهما كانت الاختلافات بينهم، سواء كانت عرقية أو دينية أو اجتماعية أو جغرافية...

ب- العمومية: إن هذه الحجج لا تقتصر على سياق محدد فهي تصلح في سياقات مختلفة ومتنوعة، فالنصيحة مثلا قد تكون بين الصديق والصديق، أو بين الأب وابنه، أو من الأستاذ لتلميذه، أو العكس...، وقد تكون في السّلم أو الحرب، كذلك الشجاعة والإقدام فهي حجة تصلح في مواضع كثيرة، فالجندي قد يحتج بشجاعته في الحروب، والرجل قد يحتج بها في إبداء الرأي، وهي حجة لرجل الأمن إذا قام بالقبض على اللصوص. أما الحجة الأخيرة فهي الأكثر استخداما في السياقات المختلفة، حيث يستدل بها الطفل مع والديه، والتلميذ مع أساتذته، والرئيس مع مرؤوسيه...

ج- التدرّجية: الملاحظ في هذه الحجج أنّها تربطها علاقة تدرجية، فهي تخدم نتيجة واحدة، إذ تثبت نبل الغلام الذي يتصف بصفات عليا، وكل حجة تخدم سابقتها وتكون أقوى منها، لذلك يمكن تمثيلها في سلم حجاجي واحد، وذلك كالآتي:

التيجة "ن" اللوم والعتاب.

(ح5) ولم تعثُرُ بحمدِ اللهِ مني على عيْبٍ يكتَّمُ أو يُذاعُ

(ح4) وما أبدَتْ لي الأيامُ جُرْماً فيُكشَفَ في مُصارَمَتي القِناعُ

(ح3) وأيُّ كريهَةٍ لم أُبْلِ فيهــا وغُنْمٍ لمْ يكُنْ لي فيهِ بـــاعُ

(ح2) وكمْ أرْصَدْتَني شرَكاً لصَيْدٍ فعُدْتُ وفي حَبائِلِيَ السّبــاعُ

(ح1) أمَا جرّبْتَني فخَبَرْتَ منــي نصائِحَ لمْ يُمازِجْها خِـــداعُ

د- النسبية: مهما كانت قوة هذه الحجج فإنّها قابلة للإبطال بحجة تناقضها، أو إذا وُظّفت في موضع لا يلائمها، فلو أخذنا الحجة الأولى المتمثلة في النصح وهو شيء مفيد، إلا أنّه قد يؤدي إلى نتائج وخيمة إذا كان المنصوح أدرى بالوقائع من الناصح، أو إذا كانت من غير أهلها، كما يمكن إبطالها بنصيحة أقوى منها، وهو ما ينطبق أيضا على الحجة الثانية المتمثلة في المشاركة في الحروب، فهي حجة قوية إلا أنها قد تبطل في موضع آخر إذا بلغت التهور.

خامسا- الآليات البلاغية:

1 الاستعارة الحجاجية:

تعد الاستعارة من أهم الخصائص الجوهرية للغات الطبيعية، وقد حظيت في الآونة الأخيرة باهتمام كبير، حيث أُلّفت فيها عشرات الكتب، واهتم بها اللغويون والأدباء وفلاسفة اللغة وعلماء النفس وغيرهم، ولم تعد تعتبر شكلا بلاغيا وأسلوبيا، أو نوعا من أنواع الزخرف اللفظي[1].

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 100.

وقد عرفها الجرجاني بقوله: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم"[1].

وتنقسم الاستعارة بحسب وظيفتها الحجاجية إلى قسمين: استعارة حجاجية، واستعارة غير حجاجية؛ تعدّ الاستعارة الحجاجية من بين الوسائل اللغوية التي يستخدمها المتكلم لتوجيه خطابه وتحقيق أهدافه الحجاجية، فهي الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، حيث تُستعمل في اللغة اليومية، وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية، أما الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية فتكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بمقاصد المتكلمين وأهدافهم الحجاجية، ويكمن هدفها في الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي[2].

وقد تنبه الجرجاني إلي هذا التقسيم، حيث قال: "ثم أنها تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون لنقله فائدة.

والثاني: أن لا يكون له فائدة، وأنا أبدأ بذكر غير المفيد فإنّه قصير الباع، قليل الاتساع... وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاص الاسم بما وُضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة، والتنوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها،

[1] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المدني، جدّة، ص 30.
[2] -ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 108-109.

كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة ... وأما المفيدة فقد بان لك في استعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك"[1].

وترتبط الاستعارة الحجاجية ارتباطا وثيقا بالسّلّم الحجاجي، حيث يكون القول الاستعاري دائما في أعلى درجاته بالمقارنة مع بقية الأقوال العادية، ولهذا فإن للاستعارة الحجاجية قوة حجاجية عالية، ومثال ذلك:

1- محمد كريم.

2 -محمد بحر.

تشكل الجملة الأولى قولا عاديا، أما الثانية فهي استعارة، والملاحظ أن للجملة الثانية قوة حجاجية أكبر من الأولى، ولذلك ستكون في السلم الحجاجي وفق الشكل الآتي:

النتيجة "ن" جود محمد

(ح 2) محمد بحر

(ح 1) محمد كريم

ونظرا لقوة الحجة الاستعارية فإنّه لا يمكن أن يرد دليل مضاد بعد القول الاستعاري، فهو لا يقبل الإبطال، عكس الأقوال العادية التي يمكن إبطالها، ومثال ذلك:

- الجو جميل، لكنني متعب.

[1] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 32-33.

يتكون هذا القول من عبارتين، يربط بينهما الرابط "لكن"، تشكل العبارة الأولى دليلا يخدم نتيجة من قبيل: "لنخرج في نزهة"، أما الثانية فهي حجة في مصلحة النتيجة المضادة، وقد وجهت هذه الحجة القول بمجمله.

أما القول الاستعاري فهو لا يقبل أن يجيء بعده رابط من روابط التعارض الحجاجي[1]، وهذا ما يفسر لنا لحن الجملة الآتية:

- محمد بحر لكنه مسرف.

وإذا قمنا باستبدال هذا القول بقول عادي سنحصل على جملة سليمة:

- محمد كريم لكنه مسرف.

ومن بين الاستعارات الحجاجية الواردة في مقامات الحريري: "**وظعن يقتاد القلب بأزمته**"[2]، يتضمن هذا الملفوظ استعارة حجاجية، تمثل حجة تدعم نتيجة من قبيل: "صعوبة الفراق"، وقد لجأ إليها المتكلم لما لها سلطة حجاجية أقوى من غيرها، فلو قال: "حزنت لفراقه"، لما كان له ذلك الوقع في النفوس الذي نتج من الاستعارة، لذلك فإن للاستعارة الحجاجية القدرة على التأثير في المتلقي أكثر من القول العادي، وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: "العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج"[3].

ويمكن تمثيل ذلك في السلم الحجاجي الآتي:

[1] - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 106-107.
[2] - مقامات الحريري، ص 27.
[3] - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 233.

النتيجة "ن" صعوبة الفراق

(ح2) ظعن يقتاد القلب بأزمته

(ح1) حزنت لفراقه

وفي قول المرأة التي جاءت عند القاضي لتشكو من زوجها الذي أسرف مالها استعارة حجاجية، حيث قالت: "**فما برِحَ يَبيعُهُ في سوقِ الهضْمِ، ويُتْلِفُ ثمَنَهُ في الخَضْمِ والقَضْمِ، إلى أنْ مزّقَ ما لي بأسْرِهِ**"[1].

يشتمل هذا الملفوظ على ثلاثة حجج تخدم نتيجة واحدة من قبيل: "تبذير الرجل لمال زوجته"، وقد رُتبت الحجج ترتيبا تصاعديا خاضعا لمنطق اللغة، بحيث تكون كل حجة أقوى من سابقتها، لذلك جاءت الاستعارة الحجاجية آخر حجة في هذا الملفوظ، وذلك في قولها: "إلى أنْ مزّقَ ما لي بأسْرِهِ"، فقد استعارت كلمة "مزّق" ووضعتها في غير موضعها، حيث شبهت ممتلكاتها بقماش يمزَّق، وحذفت المشبه به، فهي استعارة مكنية شكلت حجة قوية استطاعت من خلالها هذه المرأة إقناع القاضي والتأثير فيه.

وبذلك فإن للاستعارة سلطان لا يضاهيه أي سلطان؛ لأن المتكلم يتعمّد استخدامها لتغيير رأي المرسل أو إقناعه بقضية ما، "فالمستعير يقصد أن يغير المقاييس التي يعتمدها المستمع في تقويم الواقع والسلوك، وأن يتعرف المستمع على هذا القصد منه، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه و أن يكون هذا التعرف سبيلا لقبوله خطابه، وإقباله على توجيهه[2].

[1] - مقامات الحريري، ص89.

[2] - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أوالتكوثر العقلي، ص312-313.

ويمكن توضيح القوة الحجاجية لهذه الحجج في السلم الحجاجي الآتي:

النتيجة "ن" تبذير الرجل لمالها

(ح3) مزّقَ ما لي بأسْرِهِ

(ح2) ويُتْلِفُ ثمَنَهُ في الخَضْمِ. والقَضْمِ

(ح1) يَبيعُهُ في سوقِ الهضْمِ

وتظهر قوة هذه الاستعارة الحجاجية إذا قمنا بتحويلها إلى قول عادي يحمل معناها، فلو قالت: "أخذ كل ممتلكاتي"، لكان الكلام أضعف وقعا على نفس المتلقي، لذلك استخدمت الاستعارة الحجاجية لإقناع القاضي والتأثير فيه، والإجهاز على خصمها.

وبذلك فقد فرضت الاستعارة نفسَها على المتكلم، لما لها من دور فعّال في التأثير والإقناع، وقد تنبه الجرجاني إلى دورها في التأثير، فقال:" ومثاله قولنا: "رأيت أسدا" وأنت تعني رجلا شجاعا، و"بحرا"، تريد رجلا جوادا... فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعة، مما يعود إلى الجرأة..."[1].

[1] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص33.

وعندما طلب القاضي من الرجل أن يبرر فعلته أجابه بقصيدة شعرية تتضمن مجموعة من الاستعارات الحجاجية، يحاول من خلالها إقناع القاضي بأنه ليس مذنبا ولا مخادعا، منها: من البسيط

أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخ   تارُ اللآلي منْها وأنْتَخِــبُ

وأجْتَني اليانِعَ الجَنيَّ منَ ال   قوْلِ وغيري للعودِ يحْتَطِبُ

وآخُذُ اللفْظَ فِضّةً فــــإذا   ما صُغْتُهُ قيلَ إنّهُ ذهــبُ

وكُنتُ منْ قبلُ أمْتَري نشَبــاً   بالأدَبِ المُقْتَنى وأحتَلِــبُ[1]

والملاحظ في هذه الأبيات الشعرية أن المتكلم أتى بمجموعة من الاستعارات الحجاجية ليقنع القاضي بأنه ليس مذنبا ولم يخطئ في حق زوجته، فهو يعلم أن نجاح الخطاب يكمن في مدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة للإقناع، ومدى مناسبته للسامع، إضافة إلى استثمار الناحية النفسية في المخاطب لتحقيق التأثير المطلوب[2].

فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن استعارة حجاجية، حيث شبّه في البيت الأول البيان بالبحر، وحذف المشبه به، والقرينة الدالة على الاستعمال المجازي هي لفظة "أغوص"، فقد استُعير لفظ الغوص للبيان، ليبيّن قدرته في التعمق في بليغ العلوم وأخذ الثمين منها، أما البيت الثاني فقد شبه فيه مكاسبه بأفضل ما يجنيه المرء، وهو الفاكهة في مرحلة نضجها، وقد صرح بالمشبه به، وحذف المشبه، وهي استعارة تصريحية، واستعار في البيت الأخير لفظة "أحتلب" للكسب، وتظهر قوة هذه الاستعارة في تناسبها مع سياق التلفظ،

[1] - مقامات الحريري، ص91.
[2] - ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص 21.

فالرجل أراد أن يثبت للقاضي أنه كان يسترزق بأسهل الوسائل وهو الكلام، ويجني منه مالا وفيرا، لذلك فإن كلمة " أحتلب" هي الأنسب في هذا الموضع، لما لها من دلالات متشعبة.

إن هذا يدل على اعتماد الاستعارة الحجاجية على المستعار منه لإقناع المرسل إليه، يقول طه عبد الرحمن: "ويظهر هذا التوجه العلمي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، سواء أصرح به أم لم يصرح به؛ وغالبا ما يقترن هذا الطرف فيها، حاليا أو مقاميا، بنسق من القيم العليا، إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمتها"[1].

وتكمن فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تعد الاستعارة الحجاجية أقوى الآليات اللغوية، ويظهر التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، فهي أدعى من الحقيقة لتحريك همّة المرسل إليه إلى الاقتناع، وهو ما يهدف إليه المرسل[2].

وقد استطاع الرجل إقناع القاضي برأيه رغم الموقف العدائي لهذا الأخير منه، وذلك عن طريق مجموعة من الأقوال الحجاجية التي أحسن توظيفها في سياقها فكان لها المقدرة على تغيير رأي القاضي المتمثل في عقابه، وعليه فإن الحجاج لا يكتسي صبغة الإكراه، ولا يعتمد على منهج القمع، وإنما ينتهج سبلا استدلالية متنوعة تجعل المخاطب

[1] ـ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص312.
[2] ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 496.

يقتنع بالرأي، وإذا ازدوجت أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع تكون أقدر على التأثير في المخاطب، وتوجيه سلوكه نحو ما يراه المتكلم[1].

وفي قول الحارثُ بنُ همّامٍ عندما خدعه أبو زيد وباعه غلاما حرا : "**فودّعْتُهُ لابِساً ثوْبَ الخجَلِ والحَزَنِ، ساحِباً ذيْلَي الغَبْنِ والغَبَنِ**[2].

يشتمل هذا الملفوظ على استعارتين حجاجيتين تخدمان نتيجة واحدة من قبيل: "الشعور بالمهانة والإذلال"، وتكمن الاستعارة الأولى في قوله: " **فودّعْتُهُ لابِساً ثوْبَ الخجَلِ والحَزَنِ**"، فقد جسّد فيها المتكلم الخجل والحزن، وأعطى لهما صورة مادية عندما البسهما الثوب، مما جعل الملفوظ أكثر وقعا في نفس المتلقي، لذلك فإن من مصلحة الخطاب الحجاجي تقوية طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس؛ لأن مجال الحجاج هو الاحتمال والتوقع، فهو غير مؤكد[3].

وتكمن الاستعارة الثانية في قوله: "**ساحِباً ذيْلَي الغَبْنِ والغَبَنِ**"، فقد جعل المتكلم لكل من الغَبْنِ والغَبَنِ ذيلا، وهو ما يزيد في القوة الحجاجية للملفوظ الذي يصب في مصلحة المتكلم، وهو من أراد أن يقنعنا بتلك الحالة المزرية التي آل إليها، وقد نجح بهذا الخطاب التلميحي؛ لأنه يدرك أنه يستطيع من خلاله بلوغ أهدافه الحجاجية، ويعلم أن كل هذا يجعل المتلقي يتهيأ لتقبل الاستعارة الحجاجية، ويؤولها تأويلا صحيحا، وذلك بالاستعانة بالمعارف المشركة، والسياق، وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية لفك شفراتها.

[1] - ينظر، طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38.
[2] - مقامات الحريري، ص 369.
[3] - ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2008 ص 50.

وعليه فإن دلالة الخطاب الحجاجي لا تتوقف على الظاهر من الملفوظ فحسب، بل يمكن أن يكون الحجاج بالخطاب التلميحي أيضا، فالمرسل يزاوج بين هذين الضربين في الحجاج، والمرسل إليه يفهم ما يضمره في خطابه تماما مثلما يفهم ما يظهره فيه، فإذا كانت كفاءة المرسل التداولية تتجلى في صناعة الخطاب، فإن الكفاءة التداولية للمرسل إليه تتجلى في تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه[1].

2 التشبيه:

يعدّ التشبيه من الآليات البلاغية التي يسلطها المتكلم على المتلقي لتحقيق أهداف حجاجية، فهو "عقد الصلة بين صورتين، ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حججه "[2]، ولم يعد "وسيلة نتوصل ونتوسل به إلى معرفة أسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثير في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيرا التشبيه"[3].

ويعدّ التشبيه أقرب الأشكال البلاغية إلى الاستعارة، فقد اقترن بها منذ شيوع النموذج الأرسطي في التحليل، وقد بين البلاغيون الجدد أن العلاقة بين الاستعارة والتشبيه تحددها الفروق الوظيفية والمنطقية بينهما، فقد يستخدم التشبيه للإقناع لكن كفاءته في التأثير أقل من الاستعارة غالبا[4].

غير أن فضل حسن عباس يرى عكس ذلك، فهو يعتبر التشبيه أقوى الأشكال البيانية تأثيرا، حيث يقول: "التشبيه كغيره من وسائل القول وفنونه جيء به ليؤدي رسالة ذات

---

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجات الخطاب، ص 476.
[2] - المرجع نفسه، ص 497.
[3] - فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة 10، 2005، ص 18.
[4] - ينظر، صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص 146.

أثر، وليحقق أغراضه النفسية والنفسية المقصودة من علم البيان، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة والكناية، بل نظن إن ما يحدثه التشبيه في النفس ربما يزيد على ما يحدثه غيره من الأساليب، ذلك أن المجاز والكناية لا تدركهما النفس بيسر وسهولة، أضف إلى ذلك أن التشبيه يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيث الجمهور الذي يتأثر به"[1].

وهناك مجموعة من الأسباب التي جعلت التشبيه يؤثر في النفوس أهمها: اعتماد النفوس على الحسّ، فالنفس البشرية أكثر تأثرا بالمحسوس من المعقول، لذلك نجد المشبه به غالبا ما يكون من المحسوسات، كما أن الجمع بين الأشياء المتباعدة تستريح له النفس[2].

وحري بالبيان أن العلماء قد اختلفوا في نظرتهم للتشبيه والتمثيل، فبعضهم يرى أنه لا فرق بينهما، فكليهما شيء واحد، ومنهم ابن الأثير، وبعضهم يفرق بينهما ومنهم عبد القاهر الجرجاني، فهو يعتبر التشبيه أعم من التمثيل، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا [3]، حيث يقول: "اعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا"[4]. وعليه فإنه في كلتا الحالتين يكون التمثيل تشبيها.

وقد تنبه الجرجاني إلى القيمة الحجاجية للتمثيل، وبيّن دوره في التأثير، وذلك في قوله: " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها، ودعا

[1] - فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص 17-18.
[2]- ينظر، المرجع نفسه، ص 76.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 59.
[4] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 95.

القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبّة وشغفا"[1].

ويعدّ التشبيه في مقامات الحريري من الآليات الحجاجية التي تهدف إلى الإقناع، منها قول الغلام الذي عاتب سيده بعدما باعه بثمن بخس: من الوافر

فأنّى ساغَ عندَك نبذُ عهدي كما نَبَذَتْ بُرايَتَها الصَّناعُ

ولِمْ سمَحَتْ قَرونُكَ بامْتِهاني وأنْ أُشْرى كما يُشْرى المتاعُ

وهلاّ صُنتَ عِرضي عنهُ صوْني حَديثَكَ جَدّ بِنا الوداعُ

وقلتَ لمنْ يُساوِمُ فيّ هذا سَكابِ فما يُعارُ ولا يُباعُ [2]

يتضمن كل بيت من هذه الأبيات الشعرية تشبيها، وقد شكلت حججا تخدم نتيجة ضمنية مفادها اللوم والعتاب، حيث يحاول الغلام إقناع سيده بأنه ارتكب خطأ فادحا عندما استغنى عنه.

يضم البيت الأول حجة تخدم النتيجة السابقة الذكر، فهو يلوم سيده الذي باعه بثمن بخس دون أن تثار أدنى مشاعره، وما زاد الحجة قوة هو التشبيه الوارد في هذا الملفوظ، فقد شبّه نفسه بالبراية وهي "ما يلقى من الشيء الذي يُصنع" [3]، فالصانع لا يّأبه بها ولا يوليها أدنى اهتمام بعد إنهاء عمله؛ لأنها في نظره لا تفيد ولا تنفع، بعدما كانت الوسيلة

[1] - المصدر السابق، ص115.
[2] - مقامات الحريري، ص 365.
[3] - المصدر نفسه، ص 365.

الوحيدة في صنعه، كذلك الغلام خدم سيده وكان وفيا، إلا أن هذا الأخير استغنى عنه بكل بساطة.

ويحتوي البيت الثاني على حجة تخدم النتيجة نفسها، وقد كان للتشبيه الوارد فيه أثر واضح في نفس المتلقي، مما زاد الحجة قوة، حيث شبه نفسه بالمتاع الذي يشرى ويباع، فأي ذل أكبر من هذا؟

وشبه نفسه في البيت الرابع ب"سكاب" [1]، وهو فرس طلبه الملوك من صاحبه فأبى ذلك، فهذه الصورة زادت في القوة الحجاجية للملفوظ، وجعلته أكثر تأثير وإقناعا.

وهذا ما تحقق، حيث أتت هذه الحجج أكلها واستطاعت أن تبلغ مرادها، فأثّرت في الشيخ وأبكته، وأقنعته بأنه ارتكب خطأ لا يغتفر، وهذا يتبين في قول الحارث: " **فلما وعى الشيخُ أبياتَهُ، وعقّلَ مُناغاتَهُ، تنفّسَ الصُعَداءَ، وبكى حتى أبْكى البُعَداءَ**"[2].

إن المرسل وُفّق في اختيار حججه وحسن توظيفها، ولعل ما ساعده على ذلك هو "خلفيته المعرفية، ومعرفته بالسياق وعناصره، فقد لا يتمكن من ذلك عند غياب هذه المعرفة"[3]

كما أسهمت مجموعة من العوامل في تحقيق النتيجة المتوخاة من هذه الحجج منها:

أ- السياق: كان السياق في صالح المتكلم، حيث استغله أحسن استغلال، فلو ألقى خطابه قبل عقد صفقة بيعه لما كان له هذا الأثر البالغ، كما أن اجتماع الناس حولهم، وإحاطتهم

---

[1] - وهو اسم فرس لرجل من بني تميم طلبه منه بعض الملوك فمنعه إياه وأنشد:.

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع. مقامات الحريري، ص 365

[2] - مقامات الحريري، ص 366.

[3] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 475.

لهما ساعد في تحقيق النتيجة، فالمعروف أن الإنسان إذا وُجّه إليه الخطاب يزداد تأثرا كلما التفّ الناس حوله، فإذا مُدح أمام الجمهور كانت فرحته أشد وقعا، وإذا ذُمّ أمامهم غضب غضبا شديدا.

ب–التكامل: بنى المتكلم حججه في سلسلة سمحت للمتلقي بتتبعه لتقبل مواقفه، فلو نقصت حلقة في بنائه تعثرت العملية الحجاجية، فقد توخى عنصر الحوارية الذي يساهم في استمرار الحجاج من البداية إلى النهاية، والتجانس وذلك بخضوعه لمقتضيات البناء اللغوي للغة المكتوبة[1].

ج– حسن التصوير: وُفق المتكلم في اختيار المشبه به الذي تناسب مع المشبه، ويتلاءم مع النتيجة المتوخاة من الحجاج، كما أن للتشبيه قدرة وسلطان على الإقناع والتأثير في السامع، إذ يستخدمه المتكلم لبلوغ أهدافه الحجاجية، لذلك فإن من مصلحة الخطاب الحجاجي تقوية حججه بالاعتماد على التشبيهات.

4-3-السجع:

يعد السجع من المحسنات البديعية التي يستخدمها المتكلم قصد التأثير والإقناع، لما يمتلكه من سلطة حجاجية تزيد في قوة الملفوظ، وهذا ما أثبتته البلاغة العربية فهي مليئة بالشواهد التي تبين أن الحجاج من وظائف البديع الرئيسة، هذا بالإضافة إلى الناحية الشكلية المتمثلة في الزخرف اللفظي[2]، فالمحسنات البديعية تختلف وظائفها بحسب ما وضعت لها، فقد تكون حجاجية هدفها الأساسي هو الإقناع، وقد تستخدم للزخرف اللفظي فتهدف إلى

[1] - ينظر، عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي الجزائري، ص 202.
[2] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 498.

تزيين الأسلوب، وبذلك فإن "معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية، ولإفادة أبعاد تداولية"[1].

ويكون المحسن البديعي حجاجيا إذا كان يهدف إلى تغيير وجهة النظر، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإن المحسن سيكون للزخرف اللفظي، وتحسين الأسلوب، وسبب ذلك هو تقصيره عن أداء دور الإقناع[2].

من بين المحسنات اللفظية التي تزخر بها مقامات الحريري السجع، الذي أضفى نغما موسيقيا للخطاب فشد انتباه القارئ، وقد عمد إليه المتكلم ليزيد في القوة الحجاجية لملفوظاته، منه قول رجل غريب مخاطبا جمعا: " **اكْتَحَلْنا السُهادَ، واستَوطَنّا الوِهادَ، واستوطأن القتاد، وتناسينا الأقتاد**[3]".

يحاول الرجل إقناع الجمع بفقره المدقع ليجني منهم صدقة تنفعه، وقد أتى بمجموعة من الحجج التي تخدم النتيجة "ن" المتمثلة في تقديم الصدقة، والملاحظ اعتماده على السجع لتقوية حججه؛ لأنه يعلم أنه في موضع يحتاج إلى هذا النوع من الأساليب المسجوعة، وقد نجح في تحقيق النتيجة المرجوة بأسلوبه البليغ، حيث تأثر الجمع بقوله، وبذلك فإن السجع لا يقتصر دوره على الزخرف اللفظي، فهو يحمل وظيفة حجاجية؛ لأنه يهدف إلى إقناع المستمعين، والتأثير في نفوسهم.

[1] - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص50.
[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 51.
[3] - مقامات الحريري، ص 33.34.

وتظهر أيضا القيمة الحجاجية للسجع في قول امرأة تخاطب القاضي : **مِيسَمي الصَّونُ، وشيمَتي الهَوْنُ، وخُلُقي نِعْمَ العَوْنُ، وبيْني وبينَ جاراتي بوْنٌ**"[1].

يتضمن هذا الملفوظ مجموعة من الحجج التي تخدم نتيجة ضمنية مفادها خلق المرأة القويم، فقد أرادت أن تقنع القاضي بعفتها وطهارتها وحسن خلقها، فعمدت إلى تقوية حججها بالسجع الذي زيّن الملفوظ، وأضاف إليه قوة حجاجية استطاعت من خلالها التأثير في المخاطب وإقناعه، مما جعل النتيجة المتوخاة تتحقق.

وبذلك فإن للأشكال الصوتية والموسيقية قيمة حجاجية، حيث تلعب دورا فعالا في الإقناع والتأثير، فهي تشكل أدوات هامة في بناء حجاجية النص لما لها من قدرة على استمالة النفوس، وجذب العقول.

نصل ختاما إلى أنّ خطاب المقامات يحمل في طياته طابعا حجاجيا خالصا، يريد من خلاله المتكلم التأثير في المخاطب، وإقناعه، وقد تعددت الآليات الحجاجية في نصوص المقامات بين ما هو لغوي مثل الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، وبين ما هو بلاغي كالاستعارة الحجاجية، والتشبيه، والمحسنات البديعية، وكان لهذه الآليات وقع فعّال في عقل وقلب المتلقي، فهو يتفاعل باستمرار مع كل حجة.

[1] - المصدر السابق، ص 88.

الخاتمــة

الخاتمة:

في ختام هذا البحث توصّلت إلى مجموعة من النتائج، وهي كالآتي:

يشكل خطاب المقامات مادة دسمة للدراسات التداولية لما فيه من قضايا لغوية وسياقية، فهو يحمل الكثير من القيم الاجتماعية التي جعلته قريبا من واقع الحياة اليومية، كما أنه غني بجوانب مهمة من الدرس التداولي، فقد تنوعت فيه الأفعال الكلامية بمختلف أنواعها، ويزخر باللغة الحجاجية، إذ نلمس في معظم عباراته بعدا حجاجيا، يحاول من خلاله المتكلم إقناع السامع، وبذلك فإن الآليات التداولية تسمح بالولوج في مضامين النصوص التراثية من خلال ما صُرّح به، وما سُكت عنه، لاستكناه خباياها، ومعرفة أسرارها.

ولجت التداولية النصوص التخييلية والأدبية، واستثمرت نظرياتها في علم اللغة النصي، واستطاعت فك شفراته بإدخالها السياق أثناء الدراسة، على الرغم من الصعوبات التي واجهتها؛ لأن النص التخييلي بعيد عن سياقه.

ساهمت الإشاريات في خطاب المقامات في تأسيس العلاقة الاجتماعية بين طرفي العملية التخاطبية، حيث جسّدت الاستراتيجية التضامنية في الخطاب، وتعدّ الإشاريات الاجتماعية أكثرها تجسيدا لهذه الاستراتيجية، فقد كانت مؤشرا على الانتماء إلى الجماعة، ودليلا على الاتفاق في الرأي، ولهذه الإشاريات مجموعة من العوامل التي تتحكم فيها،

أهمها: سلطة المرسل إليه، ومكانته العلمية، كذلك علاقة المرسل بالمرسل إليه، والفارق في السن بينهما، ومكان التخاطب.

تعد المعرفة المشتركة من أبرز العناصر الخارجية التي تتحكم في بنية الخطاب، وتأويله التأويل المقصود؛ فالمتكلم يعتمد عليها أثناء إنجازه للأفعال اللغوية؛ لأنها تساعد على فهم القول وإحالة مبهماته على مراجعها الحقيقية، لذلك نجد اختلافا في بنية الملفوظات للمتكلم الواحد، وهو ما تتحكم فيه المعارف المشتركة بينه وبين متلقيه، فإذا توفرت بين طرفي الخطاب يستخدم المتكلم العناصر الإشارية دون التصريح بمراجعها؛ لأنه يعرف أن المتلقي بإمكانه فهمها وإحالتها على مراجعها الحقيقية، وفي حالة عدم توفرها يعمد المتكلم إلى الابتعاد عن المبهمات، أو الاستعانة بكلمات تساعد على إحالتها لفك غموضها.

فرضت المواقف التواصلية في خطاب المقامات على المتكلم استخدام أفعال غير مباشرة، تستمد قوتها الإنجازية من السياق؛ لأنها محكومة بعوامل خارجية لعل أهمها سلطة المرسل، والتأدّب في الحديث الذي جسّد الاستراتيجية التضامية بين طرفي العملية التواصلية في المدونة، والعدول عن محاولة إكراه المرسل إليه أو إحراجه لإنجاز الفعل، وبدرجة أقل التهرب من مسؤولية الخطاب إذا كان المتكلم شاكا في قوله، أو خائفا من متلقي الخطاب.

الملاحظ في خطاب المقامات غلبة الأفعال غير المباشرة على المباشرة؛ لأن هذا النوع من النصوص يعتمد على التلميح بدل التصريح ، لذلك فهي بحاجة إلى مبدإ التعاون المنعقد بين المبدع والمتلقي، ومعرفة كل ما يحيط بالعملية التخاطبية ، لفك شفراتها ، كما يلاحظ قلة الأفعال التعبيرية ، والأفعال الإيقاعية، ومرد ذلك إلى طبيعة نصوص المقامات،

فهي تعتمد على الوصف الإخبار والسرد والحوار، وهذه الأنماط تكثر فيها الأفعال التقريرية والأفعال الطلبية، كما أن الأفعال الإيقاعية هي أفعال قليلة الاستخدام سواء في اللغة العادية اليومية، أو في اللغة الأدبية، فهي تخص صيغ العقود والمعاهدات والأحكام.

تَبيّن لنا بعد دراسة الأفعال الكلامية في المقامات فشل الكثير منها، لاسيما تلك الأفعال التي أنجزها أبو زيد السروجي؛ لأنه لم يحترم قوانين الخطاب المنبثقة عن مبدأ التعاون، ولم يكن صادقا في معظم أقواله.

رغم قلة الأفعال الإيقاعية في المدونة، إلا أنّها استطاعت أن تُثبت وجودها، وتبرز في الخطاب؛ لأن قوتها الإنجازية تُحدث تغييرا بمجرد التلفظ بها، لذلك وردت في معظم الحالات مباشرة، كي لا تترك للمرسل إليه مجالا للتأويل.

اعتمد أبو زيد السروجي في خطابة على الشرط الأساسي عند "سيرل"، للتأثير في المستمعين، وتحقيق منفعته الخاصة، وتوجيه الفعل حسب رغبته، رغم أنه في أغلب الحالات أدنى مرتبة من مخاطبيه.

لم تلازم الأفعال التأثيرية في نصوص المقامات جميع الأفعال الكلامية، كما أنها لم تتقيد بزمن محدد فبعضها تحقق مع إنجاز الفعل مباشرة، وبعض ها الآخر تحقق بعد مدة زمنية.

يحمل خطاب المقامات في طياته طابعا حجاجيا خالصا، يريد من خلاله المتكلم التأثير في المخاطب، وإقناعه، وقد تعددت الآليات الحجاجية في نصوص المقامات بين ما هو لغوي مثل الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، وبين ما هو بلاغي كالاستعارة

الحجاجية، والتشبيه، والمحسنات البديعية، وكان لهذه الآليات وقع فعّال في عقل وقلب المتلقي، فهو يتفاعل باستمرار مع كل حجة.

ارتبطت الاستعارة الحجاجية في خطاب المقامات بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، وتعدّ من أهم الآليات البلاغية التي فرضت نفسها على المتكلم بهدف التأثير والإقناع، حيث استخدمها لتوجيه خطابه، وتحقيق أهدافه الحجاجية.

للأشكال الصوتية والموسيقية قيمة حجاجية، حيث تلعب دورا فعّالا في الإقناع والتأثير، فهي تشكل أدوات هامة في بناء حجاجية النص، لما لها من قدرة على استمالة النفوس، وجذب العقول.

تكمن أهمية السلالم الحجاجية أساسا في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري للقول، وهذا يعني أن القيمة الحجاجية لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، لأنها لا تخضع لشروط.

يلعب السياق دورا بارزا في تحويل الملفوظ إلى حجة، فالعبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة حسب السياق، كما يتدخل في إظهار الحجة وإضمارها، وهذا ينطبق أيضا على النتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.

2. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، دط-2001.

3. الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف، الرباط، الطبعة الأولى، 2010.

4. اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، منشورات عكاظ، الرباط، 1989م.

5. الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1993.

6. أبو إسحاق الشيرازي، شرح اللمع، تحقيق:عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

7. آن روبول جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس – محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2003.

8. أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة:عبد القادر فينيني، إفريقيا الشرق، دط، 1991.

9. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006.

10. بهاء الدين مزيد، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010.

11. بول ريكور، من النص إلى الفعل أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة، عين للدراسات والبحوث، ط1 ، 2012.

12. ــــــــ نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2006.

13. تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2000.

14. ــــــــ اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994.

15. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، ط 7، 1998.

16. جاك موشلر– أن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: عز الدين المجدوب وآخرون، دار سيناترا، تونس، دط، 2010.

17. جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.

18. جمال حمود: فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتفنشتاين، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط: 1، 2009.

19. جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006.

20. جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987.

21. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992.

22. أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.

23. الحريري، مقامات الحريري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 4، 2003.

24. حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند ريكور، دار تينمل للطباعة، مراكش، ط1، 1992.

25. حمادي صمّود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون، تونس.

26. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981.

27. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009.

28. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.

29. روبير مارتان: في سبيل منطق للمعنى، ترجمة: الطيب البكوش، مركز دراسات الوحدة العلمية، بيروت، ط1، 2006.

30. الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1966.

31. سعيد جابر، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.

32. السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.

33. صابر حباشة، الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني، الدار المتوسطية للنشر، ط1، 2009.

34. التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2008.

35. صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير بيروت، ط1، 1993.

36. طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998.

37. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000 .

38. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط3.

39. عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد، عمان، ط1، 2003.

40. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986.

41. عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخاني، مصر، الطبعة الثالثة، 1989.

42. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

43. دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992.

44. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط01، 2004.

45. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000.

46. علي عزت، الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب ، القاهرة، ط 1، 2009.

47. عيد بليغ، التداولية البعد الثالث في سميوطيقا موريس، مجلة فصول، القاهرة، 2005 .

48. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.

49. فان دايك، علم النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط 1، 2001.

50. فتيحة بوسنة: انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي مقاربة تداولية، دار الأمل، المغرب، دط، 2002 .

51. فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة 10، 2005.

52. فيليب بلانشية، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007 .

53. كاهنة دحمون، الجملة الاعتراضية بنيتها ودلالتها في الخطاب الأدبي دراسة في ضوء النظرية التداولية، منشورات مخبر تحليل الخطاب، 2012.

54. كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

55. المبرد أبو العباس ، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضمة، وزارة الأوقاف، مصر، ط1، 1994.

56. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.

57. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الوسطى، بيروت، ط2، 2002.

58. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2006.

59. محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، ط1، 2006.

60. المعنى وظلال المعنى، دار المدار الإسلامي، ط2، 2007.

61. مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1 ، 2004

62. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002.

63. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985.

64. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.

65. مصطفى ناصف، مشكلة المعنى في النقد الحديث، الرسالة للطبع.

66. أبو المظفر السمعاني، قواطع الأدلة في أصول الفقه، مكتبة التوبة، ط1، 1998.

67. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، 1994.

68. نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، جامعة حلوان، ط 1، 2012.

69. نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1.

70. أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي.

71. ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، (ضمن شروح التلخيص).

72. ابن يعيش، شرح المفصل، ، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.

رسائل الدكتوراه:

1 -بشير دردار، الكتابة ورهانات الإقناع، مقاربة تداولية لرسائل الجاحظ من خلال مفهوم التعدد، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012-2013.

2 -رحيمة شيتر، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009.

3 -عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي الجزائري، دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 2005-2006.

4 -قدور عمران ، البعد التداولي للخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، رسالة دكتوراه (مخطوط) جامعة الجزائر، 2008-2009.

5 -ليلى كادة ، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

المقالات

1. أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2006

2.شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.

3.صلاح الدين ملاوي ، نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة...أ

مدخل نظري:

أولا- تعريف التداولية.. 02

ثانيا- الإرهاصات الفلسفية للتداولية... 07

ثالثا- التداولية و الخطاب التخييلي... 11

الفصل الأول: الإشاريات في المدونة

- تمهيد...17

أولا - الإشاريات والإحالة.. 20

ثانيا - **أنواع الإشاريات.. 23**

1- **الإشاريات الشخصية.. 23**

2 - الإشاريات المكانية.. 49

3- الإشاريات الزمانية.. 57

4 - الإشاريات الاجتماعية...................................... 61

5- أسماء الإشارة.. 64

ثالثا- المعرفة المشتركة والإشاريات....................................... 69

الفصل الثاني: أفعال الكلام في المدونة

أولا – نشأة نظرية أفعال الكلام..77

ثانيا– أفعال الكلام المباشرة.. 85

ثالثا– أفعال الكلام غير مباشرة.. 98

رابعا– أفعال الكلام و السياق... 113

الفصل الثالث: الحجاج في المدونة

أولا– الحجاج في الدرس التداولي..................................132

ثانيا– الحجاج عند العرب القدامى................................140

ثالثا– السلم الحجاجي...143

رابعا– الروابط و العوامل الحجاجية..............................150

1–الروابط الحجاجية 152

2–العوامل الحجاجية.......................................161

3– المبادئ الحجاجية......................................165

خامسا – الآليات البلاغية...169

1 – الاستعارة الحجاجية...............................169

2 – التشبيه.................................178

3– السجع.....................................182

– الخاتمة 186

–قائمة المصادر و المراجع.................................191

–فهرس المحتويات 201

– ملخص بالعربية...204

– ملخص بالفرنسية.......................................206

ملخــص

جاءت التداولية لتجمع بين التركيب والدلالة والسياق، فهي تعنى بدراسة اللغة في السياق، من خلال الظروف المحيطة بها، من مكان وزمان، وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية، لكي تتضح مقاصد المتكلم، والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب.

ويشكل خطاب المقامات أرضية خصبة للدراسات التداولية، لما فيه من قضايا لغوية وسياقية، فهو يحمل الكثير من القيم الاجتماعية التي جعلته قريبا من واقع الحياة اليومية، كما أنه غني بجوانب مهمة من الدرس التداولي، كالإشاريات، والأفعال الكلامية، والحجاج. لذلك تمثّل موضوع هذا البحث في: "الأبعاد التداولية في مقامات الحريري"، وقد ضمّ مقدمة، ومدخلا نظريا، وثلاثة فصول، وخاتمة.

ذكرت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع، وإشكالية البحث، وما يتضمنه من فصول، وأهم المصادر والمراجع المعتمدة فيه.

وتناولت في المدخل تعريف التداولية بشقيها اللغوي والاصطلاحي، والإرهاصات الفلسفية لها، وختمته ببيان علاقة التداولية بخطاب التخييل.

وخصصت الفصل الأول لدراسة الإشاريات في مقامات الحريري، عرضت لمفهومها، وعلاقتها بالإحالة، ثم درست أنواع الإشاريات في المدونة، والمتمثلة في: الإشاريات الشخصية، والمكانية، والزمانية، والاجتماعية، وختمت هذا الفصل بتبيان دور المعرفة في تحديد مراجع الإشاريات.

أما الفصل الثاني فتطرقت فيه إلى دراسة الأفعال الكلامية في المدونة، وقد عرضت لها عند كل من "أوستن" و"سيرل"، وقمت بدراسة الأفعال الكلامية المباشرة في المدونة، ثم الأفعال غير المباشرة، لأنهي هذا الفصل بتبيان دور السياق في تحديد القوة الإنجازية لها.

وتناولت في الفصل الثالث الحجاج في المدونة، تطرقت فيه إلى الحجاج في الدرس التداولي، والحجاج عند العرب القدامى، وقمت بتطبيق أهم الآليات الحجاجية على المدونة وهي: السلم الحجاجي، والروابط والعوامل الحجاجية، والمبادئ الحجاجية، والآليات البلاغية.

وأنهيت هذا البحث بخاتمة تضمّنت ما توصل إليه البحث من نتائج.

Résumé

Le pragmatisme combine la synthèse, le sens et le contexte. De ce fait, elle s'intéresse à l'étude du contexte à travers les circonstances de temps et de lien qui l'entourent ainsi que tout ce qui entoure l'acte discursif pour élucider l' intention de l'orateur et le sens à communiquer au récepteur.

Le discours des « Makamates» forme un terrain fertile aux études pragmatiques et ce dû à son contenu de présuppositions linguistiques et contextuelles, en effet, il contient beaucoup de valeurs sociales proches du vécu quotidien. De même, il est très riches en valeurs pragmatiques tels que la déictique, les présuppositions, les actes de la parole et l'argumentation.

Ainsi, « les dimensions pragmatiques dans les Makamtes d'El Hariri » forment l'objet de notre recherche, il contient une introduction, aperçu théorique, trois chapitres pratiques et une conclusion.

J'ai cité dans l'introduction les raisons du choix du thème, la problématique et les chapitres contenus dans cette recherche ainsi que les plus importantes références bibliographiques.

Dans l'introduction théorique, j'ai étudié la définition du pragmatisme dans ses volets linguistique et conventionnel et je l'ai terminée par la mise en exergue de la relation entre le pragmatisme et le discours imaginatif.

Dans le premier chapitre, j'ai étudié la déictique dans les Makamates d'El Hariri en se penchant sur son concept, puis les différents types d'indicateurs dans l'œuvre qui constituent : les indicateurs personnels, spatiaux et temporels et sociaux. Je l'ai terminé par la mise en évidence du rôle des présuppositions dans la détermination des références des indicateurs.

J'ai consacré le deuxième chapitre à l'étude des actes de la parole chez « Austin » et « Serle » et j'ai étudié les actes directs de la parole dans l'œuvre, puis les actes indirects. Pour clôturer ce chapitre, j'ai expliqué le rôle du contexte dans la détermination de la force performative des actes de la parole.

J'ai consacré le 3eme chapitre à l'argumentation dans l'œuvre. Là, je me suis intéressé à l'argumentation dans le pragmatisme et chez les arabes anciens en appliquant les différents procédés argumentatifs qui sont : l'échelle argumentatif, les liens et les facteurs argumentatifs, les principes argumentatifs, les figures de style.

Du terme de cette étude, j'ai cité les conclusions auxquelles je suis parvenu.